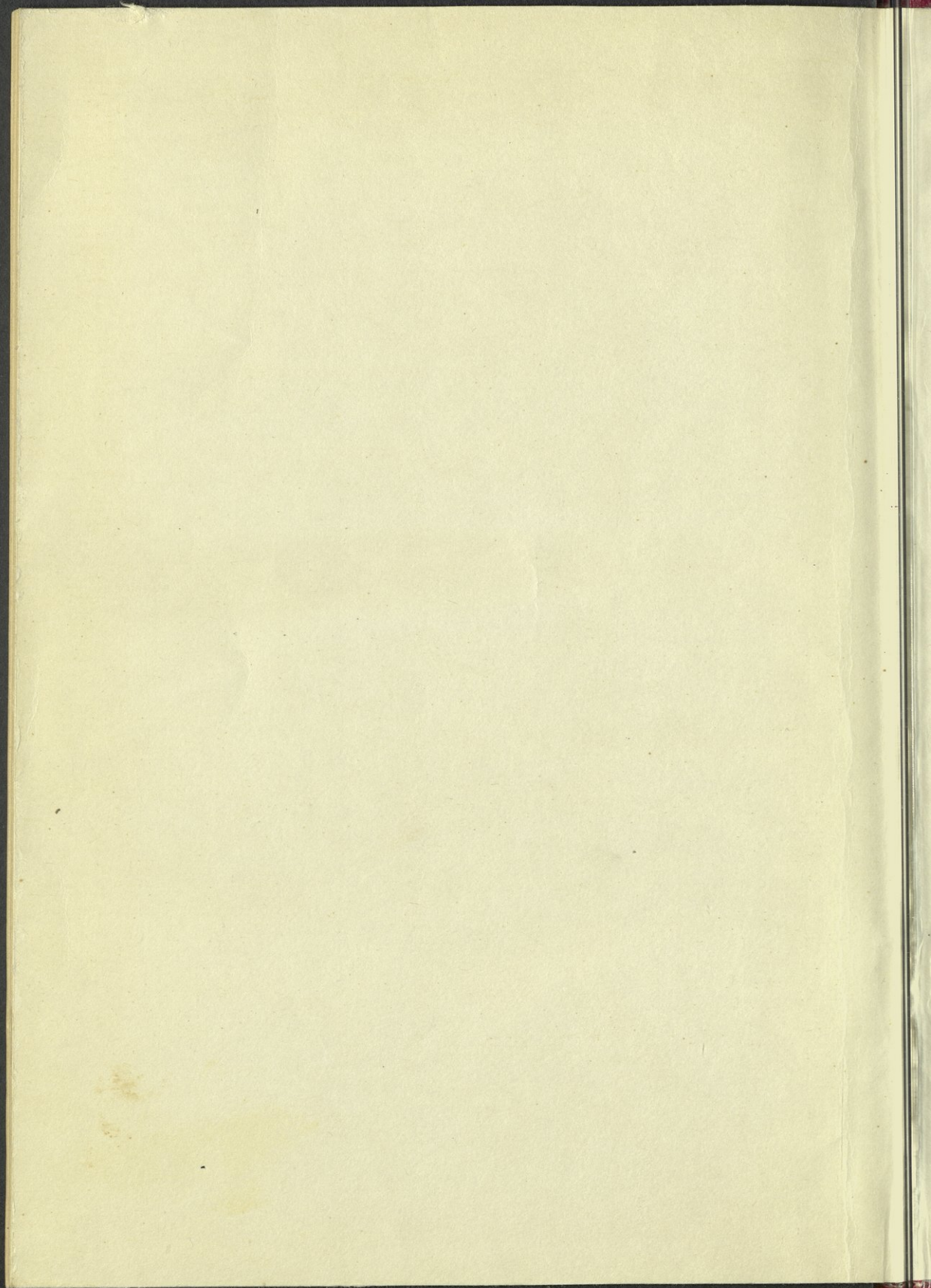
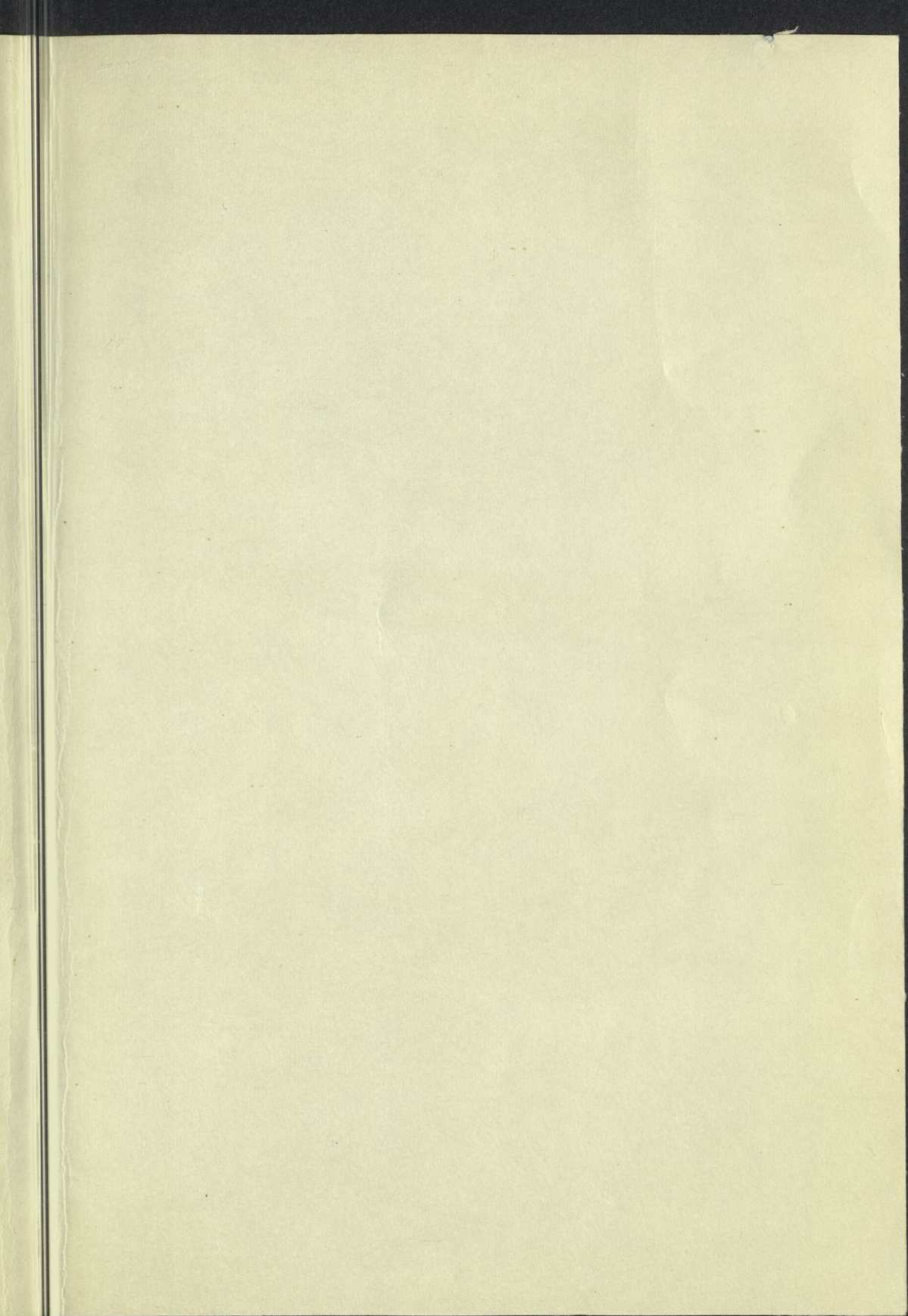
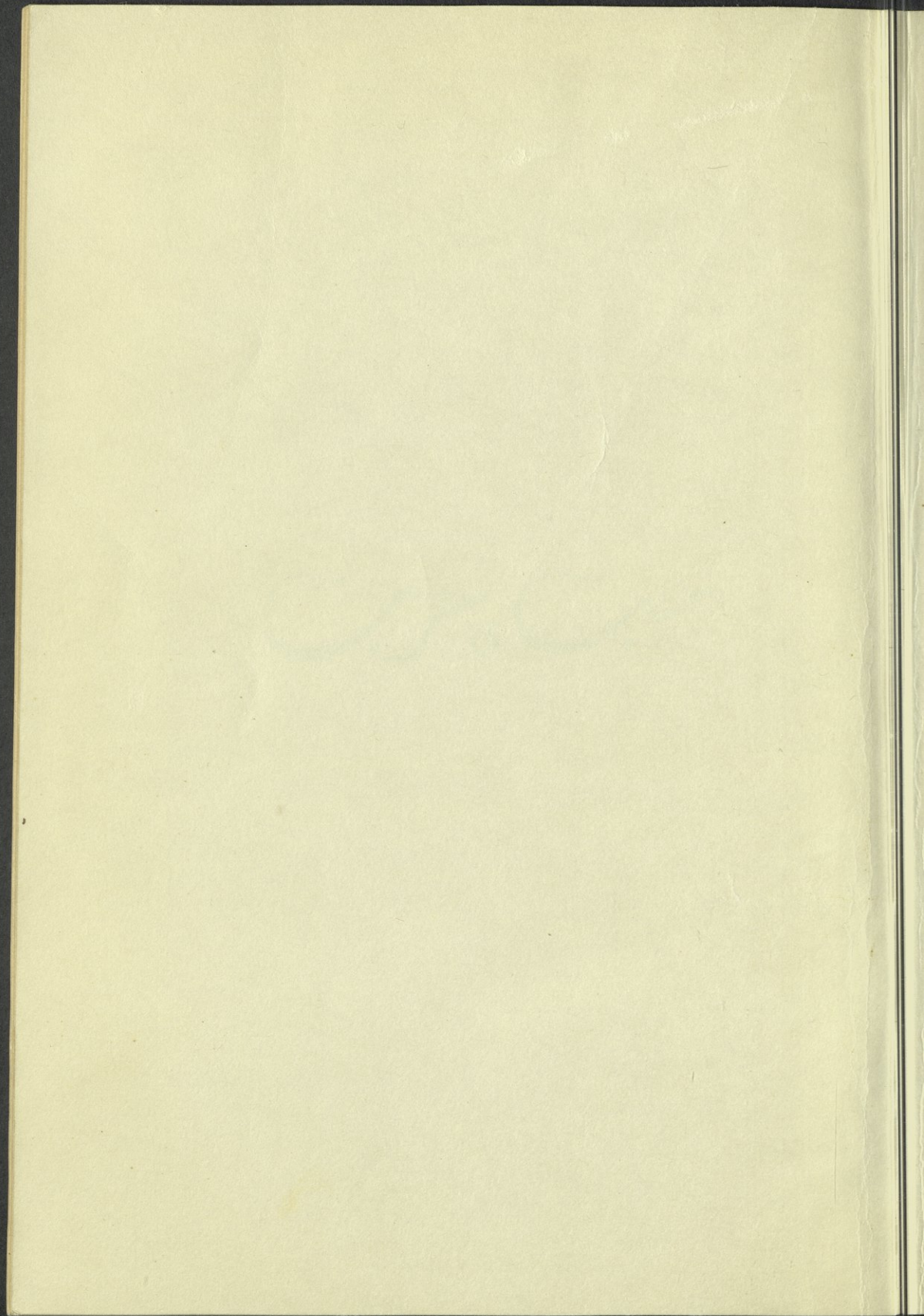
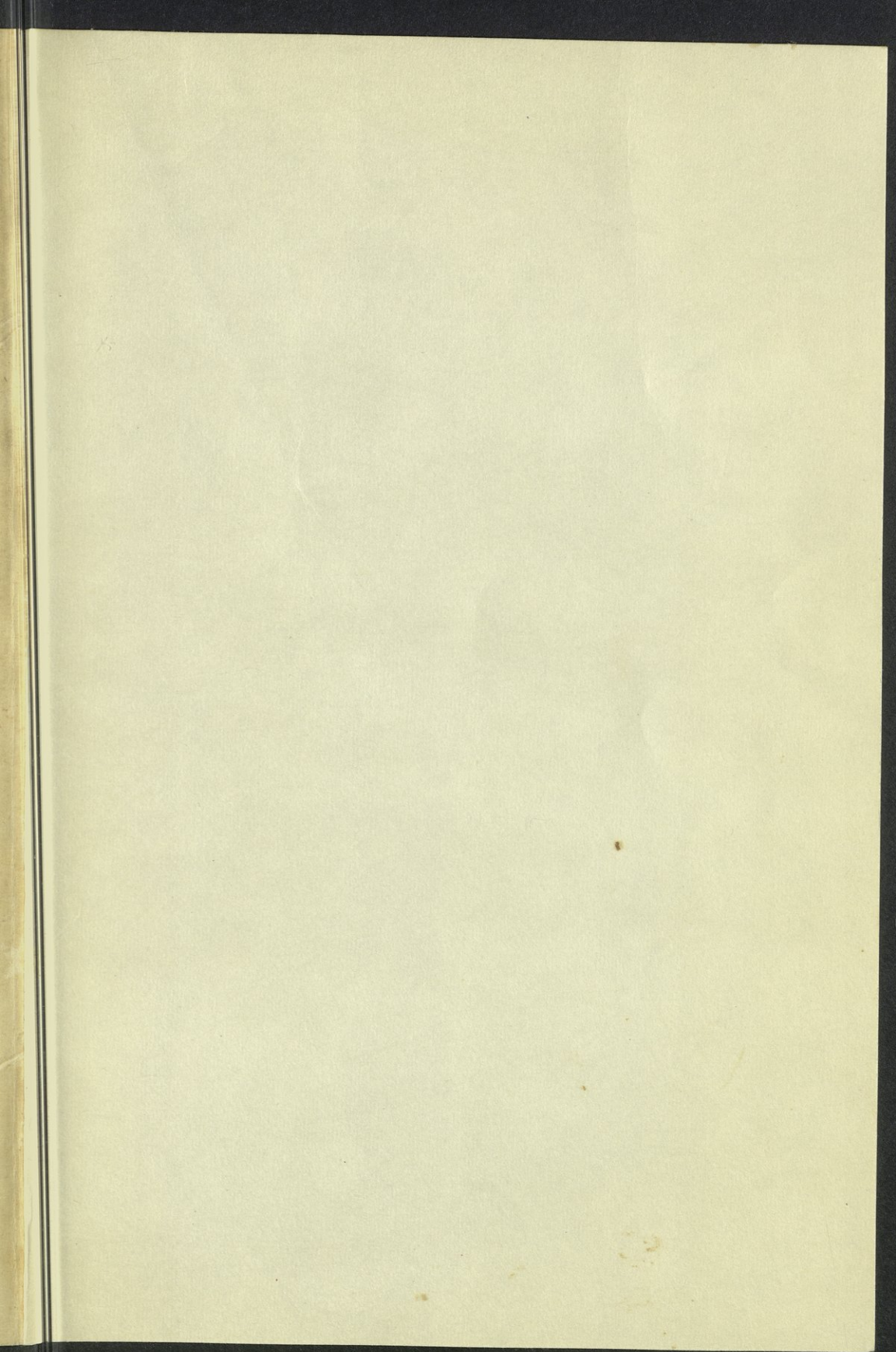


AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

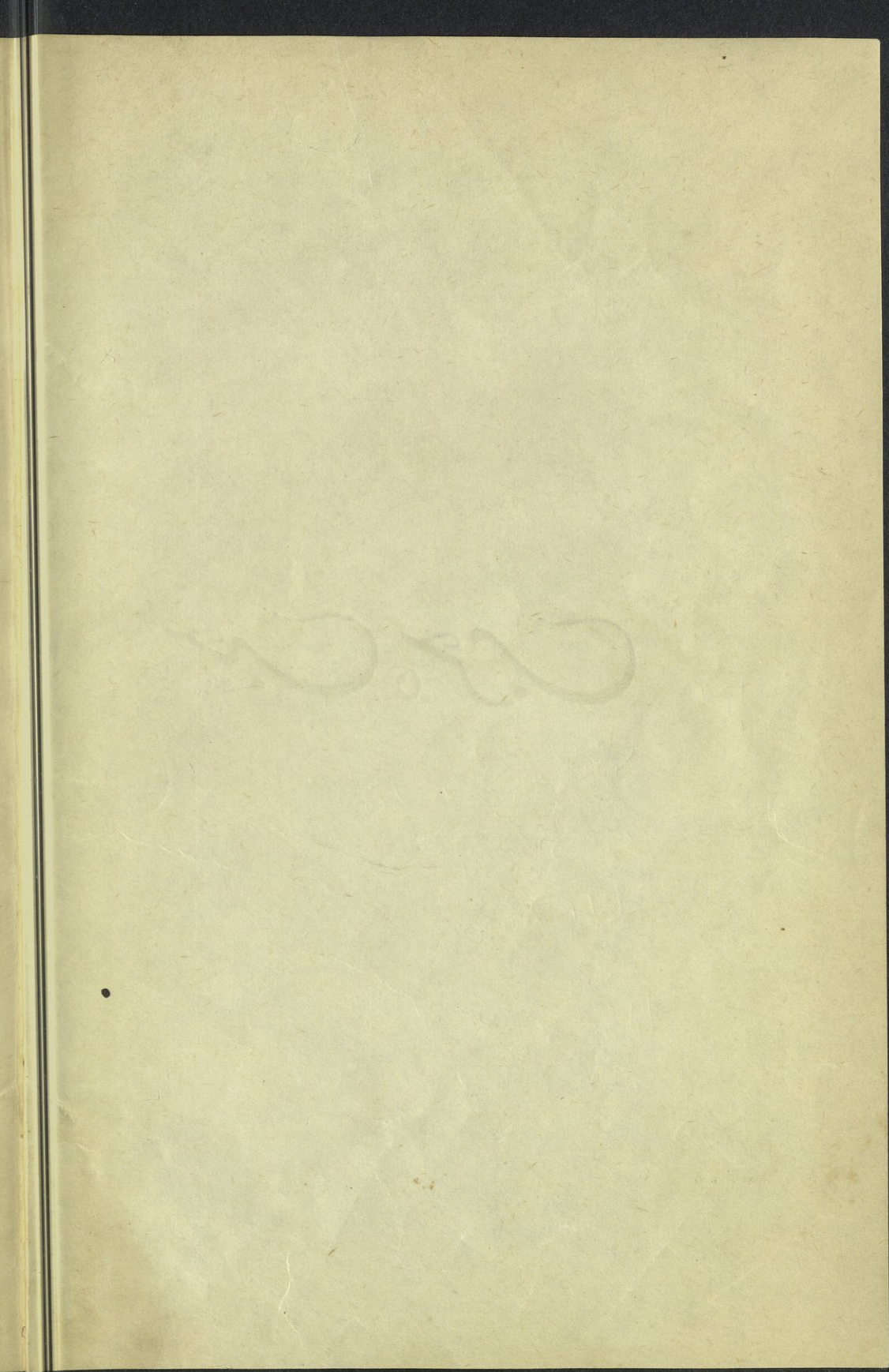








حب و حریب



دار اليفظ العربيه للناليف والترجمة والنشر

رومان رولان

حب و حرب

مع
مقدمه بقلم
ستيفان زوشاج

ترجمه
فؤاد ابراهيم

سلسله عيون الادب العالمى
١٣



جميع حقوق الطبع والنشر والوقفاً محفوظة

لدار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر

دمشق - سورية

١٩٥٣

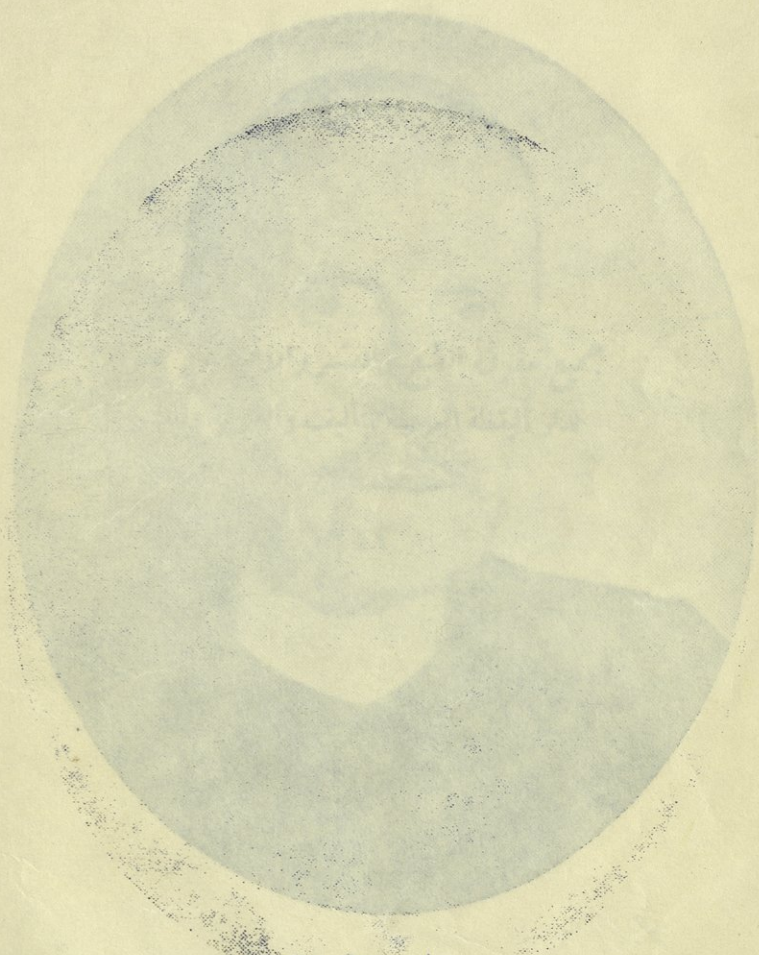
دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر

٧١

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر



رومان رولان



سید محمد

...

عنوان القصة الأصلي بالفرنسية

Pierre et Luce

par Roman Rolland

پیرس و لیس
پیرس و لیس
پیرس و لیس

المقدمة

... والصدفة المحضة هي التي قادني إلى اكتشاف رومان رولان في الوقت المناسب ، إذ دعيت مرة فتاة روسية تشغل في النحت في فلورنسا إلى تناول الشاي على مائدتها ، وهدفها من ذلك أن تطلعي على أعمالها ، وأن تحاول - في الوقت ذاته - رسم مسودة صورة لي ... وطرقت باب دارها في الوقت المحدد في الساعة الرابعة ، وقد غاب عن بالي أنها روسية ، وأنها بالنالي . لا تعير الزمان ودقة المواعيد أدنى اهتمام أو عناية على الإطلاق ، فأدخلتني عجوز مفرقة في السن كثيراً ، بلغني فيما بعد أنها كانت ممرضة لوالدة مضيفتي ، إلى معمل الفناة حيث كانت المنصر

الأكثر فتنة وتفوقاً هو الفوضى الشاملة ، ورجتني أن أنتظر
هناك ... ولم أجد في هذا المشغل إلا أربعة نحوت صغيرة
لأكثر ولا أقل ، تفحصتها في أقل من دقيقتين ؛ وحتى لا أضيع
الوقت سدى ، تناولت أول كتاب وقعت عليه يدي ، أو بالأحرى
- كي أكون أكثر دقة - تناولت سلسلة من الكراريس الصغيرة
السمراء اللون الرابضة هنا وهناك في أرجاء الغرفة ، والتي تحمل
اسم « دفاتر كل أسبوعين » ، وهو اسم تذكرت أنني سمعت به
من قبل في باريس . ولكن من يستطيع أن يتتبع كل هذه
المجلات الصغيرة التي لا يحصى لها عدد ، والتي تبرز في كل مكان
في أنحاء البلاد ، مثل أزهار مثالية قصيرة الحياة ، ثم تذوب وتلاشي .
وأخذت أنصفح كتاب رومان رولان ، « الفجر » ، ثم شرعت
أقرأ فيه ، والدهشة والاهتمام يستوليان علي أكثر فأكثر كلما
أمعنت في القراءة . من هو هذا الفرنسي الذي يعرف ألمانيا
هذه المعرفة الواسعة الدقيقة ؟ وسرعان ما أصبحت شاكرًا لصديقتي
الروسية إهمالها دقة المواعيد ، حتى إذا جاءت أخيراً كان السؤال
الذي بادرته به : « من هو رومان رولان هذا ؟ » . ولكنها لم
تستطع أن تفيدني كثيراً ، بحيث لم أعرف الرجل إلا بعد أن

حصلت على أجزاء مؤلفه التالية (وكانت الأخيرة منها ما برحت
في حالة الحل لم تخرج إلى النور بعد) .

لقد اكتشفت أخيراً العمل الأدبي الذي لا يخدم أمة أوروبية
وحيدة ، بل جميع الأمم على حدّ سواء ، ويخدم قضية الأخوة
والصداقة بينها .. اكتشفت الرجل ، الكاتب الذي بقي في الميدان
بسائر القوى الأخلاقية ، والمعرفة التي تنيرها شعلة المحبة والارادة
المخلصة في المحبة ، وعدالة مجربة ومنقّاة ، وإيماناً لا هباً برسالة
الفن التي تقوم في جمع شمل البشر وتوحيدهم . وبيننا كنا نحن
نبتعث في تظاهرات هزيلة ، انهمك هو في العمل ، في مسكون
وفي صبر ، مبتغيّاً أن يعرف الشعوب المختلفة بعضها البعض في
الصفات التي تجعلها ، كلاً على أفراد ، أكثر جدارة بالمحبة
والاحترام . تلكم كانت الرواية الأولى ، الأوروبية عن وعي
وإدراك ، التي تكتمل ههنا ؛ ذلكم كان النداء الأول الفعال إلى
الأخوة ، النداء الأكثر فعالية من أغاني فرهايرن لأنه يبلغ
جماهير أكثر عدداً واتساعاً ، والأعمق أثراً من سائر النداءات
والاحتجاجات التي كانت ترتفع - أحياناً - من هنا وهناك . ههنا
نضع في السكون ما كنا جميعاً نرجوه وننتظره دون دراية منا .

وكان أول ما عنيت به في باريس هو السؤال عنه ، متذكراً
كلمات جوته : « لقد تعلم ، وفي استطاعته أن يشقنا » . واستفهمت
عنه لدى أصدقائي ، فخيّل إلي فرهايرن أنه يتذكر مأساة بعنوان
« الدناب » مثلت على « مسرح الشعب » الذي أسسه الاشتراكيون .
أما بازالجيت فقد بلغه أن رولان ضليع في الموسيقى ، وأنه نشر
كتاباً صغيراً عن بيتهوفن . ووجدت في فهارس المكتبة الوطنية
عشرة من المؤلفات عن الموسيقى القديمة والحديثة ، وسبع أو ثمان
قطع مسرحية ظهرت جميعاً عند ناشرين صغار أو في « دفاتر كل
أسبوعين » . وأخيراً أهديته أحد كتبي ، كي أقيم صلة وصل بيني
وبينه ، فما أسرع ما تلقيت منه رسالة يدعوني فيها إلى زيارته ...
وهكذا ابتدأت صداقة جديدة كانت عظيمة الأثر ، إلى جانب
صداقتي مع فرهايرن وفرويد ، في تعيين اتجاه حياتي في مناعاتها
الحاسمة ...

* * *

إن في الأيام البارزة من وجودنا قوة نيرة تفوق ما في
الأيام العادية منه . وهكذا فاني ما برحت أذكر بكل وضوح

وجلاء تلك الزيارة الأولى ، إذ تسلفت خمس سلام ملتفة كثيرة الضيق في بيت حادي المظهر للغاية ، غير بعيد عن شارع مونتيارماس . ولم أكد أبلغ الباب حتى دهشت سلفاً لميزة السكون المسيطر هناك . كنت لا تكاد نسمع همس الشارع الكبير وهو يعلو قليلاً جداً عن صدى الريح النافخة في أشجار حديقة أحد الأديرة ، تحت نوافذ الدار . وفتح رولان الباب لي ، وقادني الى غرفته المغمورة بالكتب من الأرض حتى السقف . كنت أرى للمرة الأولى تينك العينين الزرقاوين الفانقتي اللهمان ، أكثر عينين إنسانيتين عرفتهما صفاء وحناناً ، هاتين العينين اللتين تستمدان ، في الأحاديث ، لونهما ونارهما من أكثر العواطف ألفة وصدقاً ، وظلمان في الحزن ، وتعمقان في التفكير ، وتلقيان الشرر في الهيجان ، هاتين الحدقتين الوحيدتين ، الرابضتين بين حوافي الأجفان المنعبة قليلاً ، والمحتمنة بعض الاحتمقان من جرّاء القراءة والسهر الطويل ، اللتين تستطيعان أن تشرقاً ، في روعة وبهاء ، بنور ينتقل إليك ويملؤك سعادة وهناء معاً . ورحت أقرب بنيتي في خوف قليل . كانت قائمتي مديدة رشيقة ، تنحني بعض الانحناء إذا مشى ، فكان ساعات العمل الطويلة العديدة التي يقضيها إلى مكتبه قد لوت عنقه قليلاً .

كان مظهره العام ، بسمائه البارزة الشديدة الشحوب ، يدلُّ على المرض . وكان يتكلم بصوت مخفوض جداً ، كما كان يعنى ، من جهة أخرى ، بجسده كل العناية . ولم يكن يخرج للنزهة قط ، يأكل قليلاً ، ولا يشرب أو يدخن مطلقاً ، ويتجنب كل جهد حكيمى ... ولكنني اضطررت إلى الاعتراف فيما بعد ، بأعجاب كلي ، بما يستطيع هذا الجسد النسيكى أن يتحمل من أعباء عظيمة تفوق حدود التصور ، وبما يتمتع به من قوة عظيمة على العمل الفكري ، تحتفي وراء ذلك الضعف الظاهري . كان يقضي ساعات طويلة إلى طاولته المحملة بالكتب والأوراق يكتب دون هوادة ، أو يقرأ ساعات مديدة في سريريه ، دون أن يعطي جسده التعب أكثر من ثلاث أو أربع ساعات نوم على الأكثر . وكانت الموسيقى النفسية الوحيدة التي يسمح لنفسه بها .. كان يعزف على البيان بصورة رائعة ، يضرب على مفاتيحه بعذوبة يستحيل أن يطالها النسيان ، وهو يسمح عليها بلطف فكأنه لا يرى انتزاع الأصوات عنوة منها ، بل بالاعتناء والتملق فقط . أبداً لم يعطني أي عازف ممتحن - ولقد أصغيت في أضيق الحلقات وأخصتها إلى ماكس ويجر وبوزوني ، ورونو ولتر يتجاثون في مواهبهم - شعور المشاركة الصميمية مع

المعلمين المحبوبين ، مثلما فعل رولان .

وكانت معرفته تخجلك بسعتها وامتدادها . كان يملك ، هو الذي لا يعيش ، إن صح التعبير ، إلا بعينيه كقارىء ، ناصية الأدب والفلسفة والتاريخ ، ومشأ كل سائر البلدان في كل الأزمان . وكان يعرف من الموسيقى سائر سلالمها ، كما كانت أكثر مؤلفات خالوبي وتيلمان نسيانكا ، ومؤلفات أخرى عديدة وضعها موسيقيون من المرتبة السادسة أو السابعة ، مألوفة لديه . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يلقي بسهمه ، بروح ملتزمة ، في سائر حوادث الزمن الذي يعيش فيه ، فيعكس العالم في مرآة تلك الصومعة الرهبانية فكانه في غرفة معقمة . ولقد تمتع ، بشعور إنساني عميق ، بصداقة وودّ أعظم رجال عصره ، فكان تلميذاً لرونان ، وضييفاً دائماً على بيت فاغنر ، وصديقاً حميماً لجوريس ، أما تولستوي فقد كتب إليه تلك الرسالة المشهورة التي يحق لها ، بكل فخار ، على اعتبارها شهادة إنسانية صادرة من أعماق القلب ، أن تحتل مكانها جنباً إلى جنب مع إنتاجه الأدبي الرائع . كنت هنا أحسّ - وهذا كان يطلق في دوماً شعوراً طاعياً من السعادة - حضور النفوثة الأخلاقية والإنسانية ، ووجود حرية داخلية عظيمة

مجردة عن كل زهو أو عجرفة ، حرية طبيعية في نفس قوية .
 ولقد عرفت فيه منذ النظرة الأولى - وكان الزمن مصداقاً لي
 فيما بعد - الرجل الذي سيكون ، في الساعة الحاسمة ، وجدان أوروبا
 بأسرها ... وتبادلنا الحديث في موضوع « جان كريستوف » ،
 فأوضح لي رولان كيف حاول في هذا المؤلف أن يقوم بأعباء
 واجب مثلث ، فيعبر عن امتنانه للموسيقى ، ويقول إيمانه بالوحدة
 الأوروبية ، ويوجه نداءه إلى وجدان الشعوب بوجود فعل
 الجميع على حدٍ سواء ، كل في مكانه ، كل في بلده ، كل بلغته
 الخاصة .. لقد آن الأوان كي نثقف ، ونضاعف من يقظتنا أكثر
 فأكثر دوماً ... إن القوى التي تحث على الحق ، لهي ، بسبب
 طبيعتها الدينية بالذات ، أكثر حمية وأشد عدواناً من القوى الداعية
 إلى المصالحة .. وبالإضافة ، فإن وراءها لمصالح مادية هي ، في حد
 ذاتها ، أكثر تجرداً عن الشكوك من مصالحنا . لقد كان من الواضح
 أن اللامعقول يفعل دون هوادة ، وأن النضال ضده أعظم أهمية
 من فننا بما لا يقاس . وأحسست أنه يتألم لهشاشة الأبنية الانسانية ،
 الأمر الذي يتضاعف إيلاؤه عند رجل نادى في مؤلفاته دوماً
 بخلود الفن . كان يقول لي : « إنه يستطیع أن يعزي كلاً على

انفراد ، ولكنه لا يستطيع شيئاً ضد الواقع » .
كنا في عام ١٩١٣ ، وذلك أول حديث أقنني بأن من
واجبنا ألا نعدم التبصر ، وألا نكون عاطلين غير فاعلين ، بل
ينبغي علينا بالضرورة أن نقاوم كل حرب أوروبية ما برحت ممكنة
الوقوع . إن شيئاً لم يهب رولان في اللحظة الحاسمة ذلك النفوق
الأخلاقي العظيم إلا تشبته نفسه سلفاً فيما يسعى إليه ، رغم ما
في ذلك من إبلام وعناء .. لربما أننا فعلنا شيئاً ما في بيئتنا ،
فقد ترجمت كثيراً ، وكسبت الانتباه للشعراء الموجودين عند
جيراننا ، ورافقت في ١٩١٢ فرهايرن في أنحاء ألمانيا بأسرها في
جولة محاضرات أخذت طابع تظاهرة رمزية للأخوة الفرنسية
الألمانية . وفي هامبورج تعانق فرهايرن ودعمل على رؤوس
الأشهاد : إن أكبر غناء فرنسي وأعظم شاعر ألماني قد التقيا !
وكذلك كسبت رينهاردت إلى جانب مأساة فرهايرن الأخيرة .
إبدأ لم يكن تعاوننا ، من كلا الجانبين ، أكثر وداً ووثوقاً وانطلاقاً .
وفي كثير من ساعات الحماسة كنا نهدد أنفسنا بالآوهام ،
معتقدين أننا بيتنا للعالم الحقيقة التي ستقذه . ولكن العالم لم يكن
يهم إلا قليلاً بمثل هذه المظاهرات الأدبية ، كان يسلك طريقه

الخاصة ، وكانت هي الطريق السيئة . كان في هيكل هذا العالم
لست أدري أية اهتزازات كهربائية نطلقها بعض الاحتكاكات ،
فتروح تنبثق منه شرارة في كل لحظة - مشكلة زايم ، الأزمة
في ألبانيا ، أو مقابلة خرقاء سيئة المآل . كانت شرارة واحدة
تنبثق في كل مرة ، ولكن كلاً من هذه الشرارات كانت تملك
القدرة على إرسال النار في المتفجرات المنكدسة . وكنا نشعر ،
نحن في النمسا بصورة خاصة ، أننا في قلب منطقة الاضطراب
والخطر . في عام ١٩١٠ بلغ الامبراطور فرنسوا جوزيف سنته
الحادية والثمانين ، شيخاً ، أضحى منذ زمن طويل مجرد رمز ليس
غير ، رمز لا تمكنه الحياة طويلاً بعد الآن . ولقد ساد في
الرأي العام شعور صوفي بأن انحلال المملكة المعجوز واقع بعد
رحيلة لا محالة ، وأنه ليس من وسيلة لتجنب ذلك الانحلال
وتفاديه ، ما دامت بذور الخصام القومي تتأصل أكثر فأكثر
في داخل المملكة ، بينما تتحفز في الخارج كل من إيطاليا ، وصربيا ،
ورومانيا ، وألمانيا حتى درجة ما ، مستعدة لاقتسام الامبراطورية
فيما بينها . ثم كانت حرب البلقان حيث جرب كروب من
جهة وشنيدر دي كروزو من جهة أخرى ، مدافعهما في

« المادة الانسانية » الرخيصة في نظر المعسكرين معاً ، كما فعل
الالمانيون والايطاليون فيما بعد بطائراتهم خلال الحرب
الاسبانية الاهلية . كانت تلك الحرب تجرفنا أكثر فأكثر في
تيارها المتزايد العنف دوماً وفي كل لحظة كنا نتنفس كي
نتنفس الصعداء من جديد :

« ذلك لن يكون هذه المرة أيضاً ، فلنترج أنه لن يحدث
بعد الآن على الإطلاق » ...

ستيفان زفيشباخ

من كتابه « عالم الامس »

✱ ✱

حبیب و حرم

حکیم

دبيرة القصص

من مساء الاربعاء الثلاثين من كانون الثاني حتى يوم الجمعة العظيمة
التاسع والعشرين من اذار ١٩١٨

تفصیل

مجلسه اولیٰ در روز شنبه ۱۳۰۲
در محل اجتماع

حب ...!

السلام محبته الله
بردر کوس

...! ح

منايا تبحر و الباء
سكوت

تهاوى بير في المترو وسط جمهور شر من الطباع محوم الحركة ،
ووقف قرب المدخل يزحمه صف من الأجساد البشرية التي يقاسمها
الهواء الثقيل المتداول بين الأفواه ، شاخصاً إلى القبب السود
المزججة التي تنزلق عليها حدقات القطار البراقة في جريانه السريع ،
ولكن دون أن يراها ... إن أخيلة ممائلة في القسوة ، وأضواء مكافئة
في الأيلام ، تغمر نفسه من كل حذب وضوب وتثيد عليه
حتى درجة الارهاق ، فيحاول جهده ، وهو يكاد يختنق تحت نير
ياقة معطفه المرتفعة ، وذراعه ملتصقتان بجسده بشدة ، وشفاه
منطبتان بعنف وإحكام ، والعرق يخضل جبينه ويتجمد عليه من
حين لاخر بنفحة من الريح القارسة تجتاح القاطرة كما فُتح الباب ، ألا

يرى وألا يتنفس ، ألا يفكر وألا يعيش ... إنَّ بأساً مظلماً
قاتلاً يفعم قلب هذا الفتى الذي يكاد أن يكون ، بالرغم من
بلوغه الثمانية عشر ربيعاً ، طفلاً صغيراً غص الأهاب طريّ العود
بمد . وإلى الأعلى منه ، فوق ظلمات هذه القباب السود ، فوق
ثقب الفأر هذا حيث ينزل الشيطان الممذني الممتليّ برقات بشرية ،
كانت باريس ، وكان الثلج وليل كانون الثاني الأرز ، وكان
كابوس الحياة والموت .. الحرب !

الحرب .. أعوام أربعة انقضت منذ استقرارها ما أكثر ما أثابت
فيها على قوتها . لقد بغتته في إبان تلك الأزمة الأخلاقية التي
يكشف المراهق فيها ، وهو مأخوذٌ بيقظة حواسه وتفتحها ،
قلق لانفلاتها الفجائي وانطلاقها ، ما تتمتع به الحياة الساقط
فريسة سائمة بين أظافرها ، دون أن يكون هو نفسه قد طلب
أن يعيش ، من قوى حيوانية الطبيعة ، عمياء البصيرة ، ساحقة
النفوان . فإذا ما كان هذا المراهق ، مثل بيير ، رقيق الشمل ،
طيب القلب ، ناحل الجسد ، طغى عليه بالضرورة شعور بالقرف
والاشتمزاز ، شعور بنفورٍ شديد لا يجزو على الاعتراف به للآخرين ،
نفور من هذه الفضائيع ، هذه الأرجاس والقذارات ، هذه

اللامعقولات التي ترتكبها الطبيعة الخصبية اللاهية ... هذه
الخنزيرة الماخض التي تلتهم ثمرة بطنها . إنَّ هناك قليلاً من روح همت
في كل يافع بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من مديته ، فلا
تسألوه مطلقاً أن يفهم الحرب ! (ذلك يصلح لكم أيها الرجال
المنحجرون !) يكفيه عبثاً أن عليه أن يفهم الحياة ، وأن يصفح
عنها ويغفر لها . إنه يدفن نفسه عادةً في الأحلام والفنون
حتى يألف تجسده ، وتكمل المضغة عبورها المؤلم من اليرقة
حتى الحشرة المكتملة . ألا ما أشد حاجته إلى السلام والانطواء على
الذات في هذه الأيام من نيسان المضطرب ، نيسان الحياة التي
تنضج وتفتح أكامها ... ولكنهم يأتون إليه في عزله العميقة
وينزعونه من الظلال التي لجأ إليها واحتمي بها ، ثم يلقون
به ، طريّاً في جلده الجديدة ، في الهواء الفجّ ، في الجنس البشري
القاسي الذي ينبغي عليه ، دون أن يفهم ، أن يقترن به ، ودون
أن يفهم أيضاً أن يراقب أفعاله الجنونية والبغضاء التي تتآكله .
كان بيير مدعوّاً مع أبناء جيله ، أطفال الثامنة عشرة ، إلى
الخدمة . إن الوطن اني حاجة إلى لحمه بعد ستة شهور ،
والحرب تطالب بحقوقها فيه ... إن لديه ستة شهور من الزمن ،

سنة شهور فقط ! أواه ! لو يستطيع المرء على الأقل ، حتى ذلك
الحين ، أن يمتنع عن التفكير ! لو يستطيع أن يبقى في هذا السرداب
المظلم ! ألا يشاهد بعد الآن النهار القاسي !

ويغطس في الظل ، والقاطرة تهرب به ، ويغمض عينيه .
وعندما فتحتها من جديد ... على بعد بضعة أقدام منه تنصب
فناة صعدت لنوتها ، يفصله عنها جسدان بشريان . ولم ير
منها ، للوهلة الأولى ، سوى صورة جانبية دقيقة ترسم تحت
ظل القبة العالية ، وخصلة شقراء من الشعر ضالة على الحد الناحل
قليلاً ، وضوءاً مسلطاً على الوجنة الحلوة ، ثم الخط الناعم الذي
يرسمه الأنف والشفة المرتفعة ، وأخيراً الفم المنفرج قليلاً ،
الخافق بعدد من عجلة الطريق . ومن باب عينيه ، إلى قلبه
دخالت ، دخلت بكليتها . ومن ثم أرنج الباب . وسكنت
ضوضاء الخارج وأصداؤه . إنه السكون والسلام ... إنها ههنا !
لم تك تتطاع إليه ، بل لم تك تعرف وجوده بعد . وكانت
فيه ! إنه يمك بصورتها ، خرساء ، رابضة بين ذراعيه ، ولا يجرو
على التنفس خشية أن تلفحها أنفاسه ...

وحدث بعض البلبلة والهرج في المحطة التالية ، وراح الناس

يهاقنوت ، وهم يصرخون ويزعقون ، على القاطرة التي تنقص
بهم وتنبج ... ودفعَ بئير من مكانه ، تحمله الموجة البشرية
الغاية ... فوق القبة ، في المدينة ، هناك عالياً ، كانت انفجارات
صمّاء ... وانطلق القطار من جديد ... وإمكن رجلاً سلوب
العقل ، يغطي وجهه بيديه ، اندفع في تلك اللحظة بالذات يهبط
سلم المحطة ، ثم سقط يتدحرج على بلاطها البارد . واستطاع
القوم أن يامحوا الدماء السائلة من بين أصابعه ، ثم كان النفق
من جديد ، والليل مرة أخرى ... وفي القاطرة ارتفعت صيحات
رعب مذعورة : « لقد أتى الغوتيون ! »^(١) . وفي هذا الانفعال
المشترك الذي بذب كل تلك الأجساد المتراكمة في جسد وحيد ،
أمسكت يده باليد النني تلامسها . وإذا رفع عينيه ، وجدها هي .
ولم تتماص أبداً . كانت الأصابع المنكششة قليلاً ترد بلطف
على ضغط أصابعه المضطربة ، ثم استسلمت عذبة ، محرقة ، لأحراك
بها . وبقيا هكذا ، في الظل الذي يحميها ، وبداهما أشبه
بمصفورين متعانقين في عشٍ واحد . وكان دم قلبيهما يسيل ،
في موجة وحيدة ، بحرارة الراحتين الدافئتين . ولم يتبدل آية كلمة ،

(١) نسبة إلى غوتا ، وهي مدينة في ألمانيا .

ولم بأنها بأقل نائمة .. كان فيه يكاد أن يمس الخصلة الضالة على الخد ،
وطرف الأذن الصغيرة . ولم تنظر إليه ... وبعد محطتين حلت
نفسها منه ، هو الذي لم يكن يمسكها ، وانزلت بين الأجساد ،
وذهبت دون أن تراه ...

وبعد أن اختفت فكبر في اللحاق بها ... ولكن الوقت قد
فات ، فهذا القطار قد عبّ يدعو بأقصى سرعته وفي الموقف التالي
صعد حتى سطح الأرض ، واتي من جديد الهواء الليلي ، واحتماك
ندف الثلج الخفي عن الأنظار ، والمدينة المذعورة ، المتسليمة
بذعرها ، المحلقة في علياء سماءها المصافير الحربية . ولكن
عينيه عميتا عن كل شيء ، إلا تلك التي كانت فيه ... ورجع
إلى البيت ممسكا بيد المجهولة ..

كان بئير أوبيه يقيم عند أهله قريباً من ساحة كلوني . وكان
أبوه قاضياً ، بينما التحق أخوه الذي يكبره بست سنوات بالجيش
منذ بدء الحرب . تلك عائلة بورجوازية صالحة ، فرنسية بكل
معنى الكلمة ، من أولئك الناس الشرفاء ، المفعمين بعواطف الوداد
والإنسانية ، الذين لم يجرؤوا يوماً على التفكير بمقولهم الخاصة ،
وأكبر الظن أيضاً أنهم لا يدرون معنى ذلك على الإطلاق .
وبما لا ريب فيه أن القاضي أوبيه ، وهو رجل الأضالة والشرف
الذي يضممر فائق التقدير والاحترام لواجبات وظيفته ، ليرفض
باستياء شديد ، على أنه إهانة عظمى لا تغفر ، كل ارتياب في
إمكان صدور أحكامه تحت ضغط أية اعتبارات أخرى سوى

العدالة وصوت الضمير ... ولكن صوت ضميره لم يتكلم قط
(والأفضل أن نقول لم يهمس ألبنة) ضد الحكومة . لقد ولد
وجدانه موظفاً ، فهو يفكر تبعاً للدولة المتحولة ، لكن المعصومة
في الوقت ذاته ، فالسلطات القائمة ترتدي بالنسبة إليه ثياب
حقيقة مقدسة لا يظالمها النديس . فلا عجب إذن إن كان يضر ،
بمطلق الاخلاص ، أعظم الاعجاب بتلك النفوس البرونزية المعدن ،
أعني بهم قضاة الماضي العظام والأحرار الذين لا يعرف اللين سبيلاً
إلى قلوبهم أبداً ... ولعله كان يعتقد ، في سره ، بانحداره من
سلالتهم الرفيعة أيضاً . وبكلمة مختصرة ، فقد كان مثلاً مصغراً
عن القاضي ميشيل دي لوسيمتال ، بعد مرور قرن كامل عليه من
العبودية الجمهورية .

أما السيدة أوبيه فكانت مسيحية طيبة ، بمقدار ما كان زوجها
جمهورياً صالحاً . ومثلما كان زوجها مخلصاً وشريفاً في عمله من
نفسه أعبوة السلطة القائمة ضد كل حرية غير رسمية ، كانت هي
تمزج صلواتها ، بكل طهارة قلب ، بالصلوات المجرمة الدامية التي
يضمها من أجل الحرب ، في كل من البلاد الأوروبية ، الكهنة
الكاثوليون ، أو القساوسة البروتستانتيون ، والربانيون اليهود ،

أو الخوارنة الأرثوذكسيون ، وصحف تلك الأيام وأناسها الذين
يجيدون التفكير . وكان كلا الأب والأم يعبدان وليهما حق
المباداة ، ولا يكتنان لهما ، كفرنسيين أصيلين ، إلا المحبة العميقة
الجوهرية ، متأهبين دوماً لأن يضحيا بكل شيء في سبيلها ، ولأن
يضحيا بهما ، كما يفعل الآخرون أيضاً ، دون تردد أو حذر .
ولمن ؟ . للإله المجهول ! إن إبراهيم قد قاد ، في كل الأزمان ،
فناه إسحق إلى المحرقة ، وما برح جنونه المجيد حتى الآن مثلاً
تحتذيه الانسانية المسكينة .

كانت المحبة عظيمة في هذا البيت العائلي ، مثلما هي الحال
في أغلب الأحياء ؛ أما الصداقة والألفة فمعدومتان تماماً .
كيف يمكن للأفكار أن تتنقل بحرية من شخص إلى آخر ،
بيننا كل إنسان يتجنب النظر إلى أعماق فكره الخاص ؟ ومهما
تكن مشاعر المرء عظيمة متنوعة ، فهو يدري ضرورة احتفاظه
ببعض العقائد لنفسه وحدها من دون الآخرين . وإذا ألمّ به
القلق وانتابه شعور الضيق ، حتى فيما يتعلق بتلك العقائد التي
تعرف ، لرصانتها وفطنتها ، كيف تبقى في الحدود المرسومة لها
(تلك هي حال عقائد العالم الآخر بصورة عامة) ، فما القول

إذن عندما ندعي الامتزاج بالحياة ، وقيادتها بمجموعها ، كما تفعل
عقائدنا المدنية الاجبارية ! هلمّ إذن وانسَ عقيدة الوطن ! إن
الديانة الجديدة لتجرّنا إلى الوراثة بالنسبة إلى العهد القديم ، فهي
لا تكتفي بعبادة الشفقتين وبعض الممارسات البريئة ، الصحية والسخيفة
معاً ، كالاغتراف ، وضوم الجمعة ، وراحة الأحد ، هذه الممارسات
التي طالما أرتمت حماسة « فلاسفتنا » أيام كان الشعب حرّاً ... تحت
سلطة الملوك ، بل هي تريد كل شيء ، ولا ترضى بأقل منه
أبداً . إنها تريد الانسان بكليته ، جسده ودمه ، حياته وفكره ...
دمه على الأخص . أبداً لم تتخمد الألوهية ، منذ قطن الازنيكيون
بلاد المكسيك ، مثلها اليوم . ولأنه لمن الظلم العظيم أن نقول
إن المؤمنين لم يتألموا من مثل هذه الحال ... لقد كانوا
يتألمون ، ولكن يؤمنون . أواه ، يا أخوتي البشر المساكين الذين
يؤلف العذاب نفسه بالنسبة إليكم برهاناً على الالهي ...

كان الزوجان أوبيه ، مثلها في ذلك مثل باقي الناس ، يتألمان ،
ومثل باقي الناس أيضاً يتعبدان . ولكن ، أيمكن أن نطلب من
المراهق أيضاً هذا الانكار للقلب والحواس والحسّ السليم ؟ لقد
كان يتبرر بـ « أن يفهم على الأقل ماهية ذلك الشيء » الذي يضطهده

ويشيد عليه . كم من سؤال يحرقه دون أن يستطيع الإفصاح عنه !
ذلك أن الكلمة الأولى من سائر أسئلته ستكون : « ولكن ، إذا
كنت لأؤمن بذلك . ! » أفليس هذا لوحده تجديفاً لامرأ فيه ؟
كلا ، إنه لا يستطيع أن يتكلم . لو فعل لتطلموا إليه بدهشة
مذعورة حاققة ، وألم واستحياء في الوقت ذاته ... ولما كان في تلك
السنن الطرية التي تتجمد فيها النفس ، لشدة ما عليه قشرتها من
رقعة ولطف ، بأقل المؤثرات القادمة من الخارج ، وتنصهر مرتجفة
تحت أصابعها الجامحة الخفية ، فسرعان ماسقط فريسة الكتابة
والخجل معا . أواه ! ما أكثر ما يؤمنون جميعاً ! (ولكن ، هل
يؤمنون جميعاً حقاً ؟) . كيف يفعلون ذلك ؟ إنه لا يجروء على
مجرد طرح مثل هذا السؤال . . أن يكون المرء وحده عديم
الآيمان بين جميع الذين يؤمنون ، فهو أشبه إذن بمن ينقصه عضو
من الأعضاء ، قد يكون زائداً وعديم النفع ، ولكن سائر
الآخرين يملكونه . عندئذ يخجل المرء ، وهو مضرع الوجنتين
حياءً ، عريه عن العيون ويخفيه ...

كان أخوه البكر الشخص الوحيد الذي تمكن من فهم
آلام اليافع المبرحة ، وعذاباته الجارحة . وكان يبصر بضمير لاخيه

تلك العبادة التي يُكنها الصغار (ولكن يحقونها في حسدٍ وغيره
 واحتراسٍ كبير) للبكر ، أختاً كان هذا البكر أم أختاً ، صديقاً
 أم غريباً ، وحتى في بعض الأحيان رؤيا ساعةٍ ، تلاشت إلى
 الأبد ، ولكنها تحقق في أعينهم الحلم كالأغنية منقوصة ، حلم
 ما يريدون أن يصيروا إليه ، وما يودون أن يعيشوه : أحلام عن
 المستقبل عذراء طاهرة ، تتلاطم أمواجها الطموحة باستمرار ،
 وتتمازج تياراتها الأنثوية دون انقطاع . ولقد لاحظ البكر هذا
 الأكرام الساذج المرفوع إليه من أخيه ، ورضي به فخوراً
 مزهواً ، فشرع يحاول منذ ذلك الحين أن يقرأ ما يحتاج في
 قلب الصغير ، وأن يشرح له ، في كثير من العناية والاحتراس ،
 ما يطالعه به هذا القلب الغضّ الطري . أليس هو أيضاً ، بالرغم
 من كونه أكثر صلابة ومراساً من أصغره ، مجبولاً مثله من
 تلك العجينة الرقيقة التي تخنط عند أفضل الرجال بشيء من
 الأنثى ، والتي لا تخجل من ذلك مطلقاً ؟ ولكن الحرب جاءت
 وانتزعت من حياة الجهاد التي يعيشها ، ومن دراساته في العلوم ،
 ومن أحلام العشرين ربيعاً ، ومن الألفه الوثيقة مع الأخ
 الأصغر . لقد هجر كل شيء ، في مثالية اليوم الأول للثمة ،

مثل عصفور كبير مجنون ينطلق في أجواز الفضاء ، واهباً ، في
بطولةٍ وعبتٍ . إن منقاره ومخالبه ستضع حداً للحرب ، وتعيد
إلى الأرض مملكة السلام ، ومنذ ذلك الحين آب العصفور إلى
عشه مرتين أو ثلاث مرات ، فافداً - وأسفاه - قليلاً من
ريشه في كل مرة ... ولقد رجع عن عدد كبير من الأوهام
والأحلام الباطلة ، ولكن الاعتراف بذلك كان يحز في نفسه
كثيراً فلا يقدم عليه . إن ذكرى إيمانه بتلك الأوهام تخجله ...
يا للبلهه ! كيف لم يدر أن يرى إلى الحياة كما هي في حقيقتها ؟
فليجهد الآن إذن ، في عناد ، كي يفك سحرها ، وليكن
مقدماً ، جريئاً في قبولها كما هي ، مهما تكن مساوئها عظيمة !
ولم يكتف بمعاينة نفسه على ذلك فحسب ، بل إن الماردية
كان يدفعه إلى إزال العقاب بأوهامه في قلب أخيه الفتى أيضاً
حيث يجدها متربعة متسلطة . وهكذا ، عندما عاد البكر من
الجهة المرة الأولى ، وانطلق بغير عذو ولا لاقائه والاشتياق
يلتهب في نفسه المسورة ، ما أمرع أن ارتد مشدوهاً مسبوهاً ،
وقد أذهله الاستقبال الذي أقيه أخوه به ، وتجمدت الحرارة
المنأجة في قلبه على حين غرة ... لقد كان استقبالا عاطفياً من

دون أدنى ريب ، ولكن في نعمته لست أدري أيه سخرية مريرة
قاسية ... ولم تلبث الأسئلة المتزاخمة المتدافعة على شفثيه أن نكصت
على أعقابها ... كان فيليب يراها قادمة ، فيحصدها بنظرة سريعة
أو كلمة مقتضبة . وتراجع بيبير ، بعد محاولتين أو ثلاث محاولات ،
منقبض القلب ، حزين النفس .. إنه لم يعرف أخاه ألبته !

ولكن الآخر يعرفه كثيراً ، يعرف فيه ذاته فيما مضى من
الأيام ، وما يعجز بعد اليوم عن الصيرورة إليه . وكان ينتقم
منه لذلك ، ولا يلبث أن يأسف لسلوكه ، ولكنه لا يبدي
شيئاً من أسفه ، بل يعاود الكرة من جديد . كان كلاهما
يتألمان ، وبدلاً من أن يوحد هذا الألم القريب بينهما ، يزيد
على المكس الموهبة التي تفصلهما انشاعاً من جراء سوء تفاهم كثير
المصادفة والوقوع . وكان الفارق الوحيد بين كليهما هو إدراك
البكر قرب أخيه منه ، بينما يبير يظن نفسه وحيداً مع آلامه
دون من يفتح له قلبه ...

لم لم يلتفت إذن إلى أبناء جيله ، زملائه العتيدين في الدراسة ؟
كان ينبغي على هؤلاء المراهقين ، كما يبدو للوهلة الأولى ، أن
يلتفتوا حول بعضهم البعض ، ويتبادلوا المضد والمؤنة . ولكن

لم يكن شيء من هذا على الإطلاق ، بل إن قضاء كئيبي كان
على العكس يُبْعِدُهم عن بعضهم ويبعثهم في جماعات صغيرة عديدة ، وهم
متوحدون حذرون حتى في قلب تلك الحلقات الضيقة .. كان
العاديون منهم قد غطسوا في التيار الحربي في حمية وجنون ،
دون تدبير أو وعي ، أما سوادهم فكانوا يعتمدون عن ذلك
النبار ، وقد فقدوا كل صلة بالأجيال السابقة لهم ، فلام يشار كونها
أهواءها ، ولا هم يتقاسمون وإياها آمالها وأحقادها ، بل يتفرجون
على أفعالها المبهوسة فقط مثلما يفعل القوم الصائمون تجاه الذين
شربوا كثيراً ... ماذا عساهم يستطيعون ضد تلك الأفعال ؟ إن
الكثيرين منهم قد أسسوا مجلات صغيرة كانت حياتها المؤقتة
تنطفئ منذ الأعداد الأولى لنقص الهواء ، إذ أن المراقبة تنشر
الفراغ في كل مكان ، وفكر فرنسا سجين جرس آلة تفريغ
الهواء . وكان أكثر هؤلاء الفتيان ذكاء ، وهم أضعف من أن
يشربوا وأكرم من أن يشتكوا ، يعرفون سلفاً أن سكن الحرب
مسلطة فوق أعناقهم ، فيروحون ينتظرون دورهم للمروز على
المذبح ، وهم ينظرون أثناء ذلك ويصدرون الأحكام ، وكل منهم
يحفظ بها لنفسه ، في قليل من الأزدراء وكثير من السخرية .

لقد ألقوا بأنفسهم ، كرد فعل مشبع بالاحتمار على عقلية القطيع
 الجامدة ، في نوع من الانانية الفكرية والفنية ، في شهوانية
 مثالية حيث تطالب الانا المطاردة بحقوقها ضد الجماعة البشرية .
 يالهذه الجماعة السخيفة التي لم تكشف عن ذاتها لهؤلاء المراهقين
 إلا تحت شعارات الجريمة التي يرتكبها المجموع ويحمل هو نفسه
 عواقبها أيضاً . إن تجربة مبكرة قد حطمت أوهامهم وسحقها :
 لقد رأوا ما تساويه هذه الأوهام عند الذين يكبرونهم منا ،
 وكيف يدفعون ، هم الذين لا يؤمنون بها ، حياتهم ثمناً لها...
 لا بل إن ثقتهم قد تزعزعت حتى في أولئك الذين يكاثرونهم
 منا ، في الانسان بصورة عامة... وعلى أية حال فقد كانت الثقة
 تكلف غالباً في تلك الأيام ، فكل نهار يعان عن وشاية جديدة
 ببعض الأفكار والاحاديث السرية التي ينقلها جاسوس وطني تمجده
 السلطة وتوجب حماسه وتذكيها . وهكذا لم يكن أولئك الفنان ،
 قنوطاً منهم واحتقاراً وحذراً واستسلاماً لقلق فكري عاتٍ ،
 يتبادلون أفكارهم إلا فيما ندر من الأحياء .
 ولم يستطع بيز أن يجد عندهم الصديق الحميم ، هوراسيو
 الذي يفقش عنه همات النائمة عشرة... وإذا كان قلبه يطفح هولاً

من تسليم تفكيره إلى الرأي العام (هذه الفتاة الماهرة) ، فهو
في أشد الاحتياج إلى توحيده ، بملء حريته ، بذوات ينتقمها
بنفسه كان أطرى من أن يكتب بذاته وحدها فيجرع نصيبه
من الألم العموي الذي يسحقه بنير عذابٍ ثَقِيلٍ كان يبالغ في
تقدير وطأته كثيراً - فالإنسانية إن تحملته ، رغم كل شيء ،
فلأن جلدتها أفسى من البشرة الجديدة التي تكسو جسد مرهق
ناحل هزيل - ولكن شيئاً آخر كان يرهقه أكثر من
عذاب العالم ، ألا وهو بلاهة هذا العالم

سواء أن يتعذب الإنسان ، سواء أن يلاقي المنيّة إن كان
يعرف لذلك معنى ! إن التضحية لأمر رائع ، إن كان المرء
يدري لها سبباً . ولكن ماهو معنى العالم وأوجاعه بالنسبة إلى
مرهق صغير ؟ وإن كان مخلصاً مع نفسه ، أميناً لها ، سليم
التفكير ، صادق الطوية ، فماذا يعنيه من ذلك التطاحن اللفظ
بين الأمم التي تتقاتل ، مثل ثيران بلهاء ، فوق الهاوية حيث
ستندرج جميعاً ؟ لماذا هذه الأوطان من الفرور ، هذه الدول
التي يسودها قانون السلب والنهب ، هذه الشعوب التي يملأونها
الجريمة كواجب أولي ؟ لماذا هذا التذابح ، في كل مكان ، بين

الكائنات ؟ لماذا هذا العالم الذي يلتهم بعضه بعضاً ؟ لماذا كابوس
تلك السلسلة الشيطانية اللامتناهية من الحياة ، الفارسة كل
من حلقاتها فكيتها في رقبة جارائها ، تتغذى بلحمها ، وتغيبط
بألمها ، وتحيا بموتها ؟ لماذا هذا القتال وهذا الألم ؟ لماذا الموت ؟
لماذا الحياة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

في تلك العشيّة ، حين عاد الفتى الى بيته ، كانت لماذا
قد سكنت ...

* * *

ولكن شيئاً لم يتبدل مع ذلك . كان في غرفته المزدحمة
 بالأوراق والكتب ، والأصوات المألوفة تحيط به من كل جانب .
 هذه الصفارة في الطريق تدوي معانسة زوال الخطر ، وهذه
 نثرمة المستأجرين الراضية تتردد في أرجاء السلم وهم يصعدون
 من القبو ، وتلك أصداً خطوات الجار المجوز الشيطانية يرن
 وقعها فوق البلاط دون انقطاع ، وهو يتنزه في أرجاء غرفته
 منتظراً منذ أشهر أوبة ابنه المختفي . ولكن غرفته قد خلت
 من تلك الهموم المتكاثفة التي خلفها فيها عند خروجه .

يحدث في بعض الأحيان أن لحناً منقوصاً يقع على الأذن
 أجش الصدى ، فيترك الفكر قلقاً حتى تنضم إليه النغمة الناقصة

فتحقق ذوبان العناصر المتنافرة أو الغريبة عن بعضها البعض ،
 مثلها في ذلك مثل زائرين التقوا في بيت واحد دون أن يسبق
 لأحد منهم معرفة بالآخرين ، فهم ينظرون في برود من
 يقدّمهم لبعضهم البعض ، وعندئذ ما أسرع أن يتحطم الجليد ، ويروح
 التوافق يسيل بينهم جميعاً . هذه الكيمياء الأخلاقية قد حققها
 في نفس بيبر إحتكاك خفي دافئ ، دون أن يعي هو نفسه سبباً
 لذلك التبدل الطارئ عليه على غير انتظار ، أو يفكر أيضاً
 بتحليله كي يتوصل إلى فهمه وإدراكه . ولكنه كان يحس أن
 النفور المهود بين الأشياء قد لان بغتة ، وأن العداوة المعتادة
 قد شرعت تتلاشى . إن المأّ حاداً في الرأس يسكنك منذ
 ساعات ويرهقك دون رحمة أو شفقة ، وإذا بك تتحقق — على حين
 فجأة — من غيابه ... كيف رحل ؟ إن الصدغين لا يكادان
 يطنّان معجراً للدكري . ويتخذ بيبر من هذا الهدوء الجديد موقف
 الحذر ، يرتاب في أنه يخفي وراء هدنة عابرة عودة الشر الذي
 تضاعفت وحشيته واشتدت قسوته بعد أن تمالك أنفاسه لقد
 سبق له المعرفة بتلك الهنيمات من الراحة التي بوّرها الفن
 لنا ، فيسود السلام قلوبنا ، وعلوّنا الفرح وبغمرنا عندما ينفذ

ذلك الانسجام الالهي بين الخطوط والألوان في عيوننا ، أو تباين فراغ قوقعة آذاننا الطنان تلك الألاعيب المتنوعة الرائعة التي تقوم بها ، حسب قوانين الأعداد المتناسقة ، الأوتار المشتبكة المتلاقية ، فتمت اللذة ، أي لذة ، فينا .. ولكن ذلك إشعاع يأتي من الخارج ، قل إنه شمس تمسك نيرانها البعيدة بنا معاقين مشدودين فوق حياتنا زمنياً يسيراً جداً نعاود بمده السقوط في الهاوية السحيقة . إن الفن لم يكن في يوم من الأيام إلا نسياناً عابراً للواقع .. وهكذا كان بيير ينتظر ، مذعوراً ، ذات الخيبة المريرة .. ولكن الإشعاع كان يَرِدُ ، هذه المرة ، من الداخل ... إن شيئاً من دقائق الحياة لم ينله النسيان ، ولكن الكل مع ذلك — بما فيه الذكريات والأفكار الجديدة — يحقق تناسقاً مذهشاً في غاية الروعة . لا بل إن الأشياء نفسها ، الكتب والأوراق المبعثرة في الغرفة ، قد دبّت الحياة فيها ، فشرعت تتحرك وتستعيد الأهمية التي فقدتها منذ عهد طويل ...

منذ شهور ونموه الفكري مضغوط ، مثل شجرة فتية يستولي عليها الصقيع والجليد ، فيرميها بالذبول وهي في ملء عنفوانها

بعد .. لم يكن يدير في عداد أولئك الصبية العاملين الذين
يستفيدون من التسهيلات الجامعية الممنوحة للطلاب الفتيان الذين
اقترب يوم دعوتهم للخدمة ، كي ينتزعوا قبل الأوان شهادة ما
تحت أنظار الفاحصين المتساهلة . كذلك لم يجرب أبداً ذلك
الظماً الجشع اليأس الذي يملك هاباً يرى الموت يدب إليه بخطى
حينئة ، فيضعف ما يزدرده ، وبأخذ بالتهام المعارف التي لن
تسمح له الفرصة كي يتحقق في الحياة من صوابها وصحتها . كان
الشعور الأزلي بالفراغ ، الفراغ الكامن في آخر الدرب ،
الفراغ القابع تحت سائر الأشياء ، مخبئاً في كل مكان خلف
أوهام هذا العالم القاسية اللامعقولة ، كان ذلك الشعور يقطع
عليه سائر انطلاقاته ، ويسد كل الطرق في وجهه . إنه يري
بنفسه على كتاب جديد ، أو فكرة جديدة ، ثم يتوقف قانطاً ...
إلام يعود هذا ؟ ما فائدة التحصيل ؟ مانع الأثر إن كان
لابد من خسارة الكل وهجرانه ، إن كنت لا تملك شيئاً على
الاطلاق ؟ كي يكون للفعالية ، للعلم ، معنى ، يجب قبل أن
تملك الحياة معنى أيضاً .. ولكن جهود الفكر كلها ، وتوسلات

القلب بأسرها ، لم تستطع الحصول على ذلك المني ... إنا هذا
المعنى يأتي من تلقاء ذاته ... إن للحياة معنى ..!
ماذا ؟ وإذ راح يفتش عن مصدر تلك الابتسامة الباطنة
صاغت أنظاره الفم المنفرج الذي يتحرق فوه شوقاً
للإطباق عليه ...



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

هذه البهجة الخرساء ، ما أسرع ما كانت تنلاشى وتضمحل
لو أن الزمان يسلك مجراه الطبيعي ... ففي هذه الساعة من
المراهمقة ، إذ يعشق الفتى الحب خالصاً مجرداً ، فهو يلقاه في
سائر العيون على الإطلاق . إن القلب المفعم منهما وتردداً في آن
واحد يتأرجح به من عينيّن إلى عينيّن دون انقطاع . ما الذي
يحثّه على الثبات ؟ إنه ما برح في مطلع نهاره بعد ..

ولكن نهار اليوم سيكون قصيراً ، فلا بد من الإسراع إذن ..
ويتسارع قلب الشاب بمقدار ما كان من قبل متأخراً متقاعساً .
إن المدن الكبيرة المتبديّة عن بعدٍ محارق كبريّة يتصاعد منها
دخان الشهوة الحسية ، لتضمّ في حياها كثيراً من النفوس الحية

والأجساد الطاهرة البريئة .. كم من فتيان ، وكم من صبايا ،
يحترمون الحب ويحفظونه فيحفظون بتولية حواسهم حتى الزواج !
وحتى في البيئات الأكثر خلاعة ، حيث يُستشار حب الاطلاع
في سن مبكرة جداً ، كم من جهالات تختبئ وراء الأحاديث
الصادرة عن شفتي فتاة عمرية ، أو الناطق بها طالب بسيط
يدري كل شيء ولا يعرف شيئاً ! إن في قلب باريس لمقاطعات
ساذجة ، حداث صغيرة مثل الأديرة ، ينابيع رائحة من الصفاء
والطهارة . وما يخون باريس هو أدبها ، لأن الذين يتكلمون
باسمها أكثر أهلها دنساً وعاراً . أما الأكثر نقاء فغالباً ما يمنعهم
نوع من الاحترام الانساني الضال عن إعلان برائتهم .. لقد كان بيير
جاهلاً بالحب بعدد ، فيما أسرع ما استسلم لأول ندائه .

وإلى تفكيره المسحور يجب أن نضيف هذا أيضاً : إن
الحب عنده قد ولد تحت جناح الموت .. ففي تلك البرهة من
الانفعال والاضطراب ، بينا هما يحسان وعيد القنابل يمر من فوق
رأسيهما ، ومشهد الرجل المشوه الداعي يملك عليهما مشاعرهما
ويعتصر القلب منهما ، سمعت أصابعهما إلى بعضها البعض وتلاقت
ببساطة تامة . وفي هذه اللقيا الجموح قرأ كلاهما قشعريرة الجسد

المذعور ، ومواصاة حنوناً يجذب بها الصديق المجهول . وكانت
إحدى اليدين ، يد الرجل ، تقول : « إغتمدي عليّ » ...
أما الأخرى ، الأمومية ، فتزدل غشيتها الخاصة لتقول : « يا صغيري ! »
لم تفقه الشفاه بشيء من هذا ولم تسمعه إلا أذان قط . إنما
ذلك الهمس الباطني يملؤ النفس بصورة تفضل الكلمات بما
لا يقاس ، هذا الستار من الورق الذي يقنع الفكر ... واستسلم
ببئر لهددة هذا الدوتي الأشبه بلحن زنبور مذهب يطوف
في مناطق الكينونة الليرة المظلمة ... راحت أيامه تجري ، خدرة ،
في هذا السكسل الجديد ... إن القلب المنزحل العريان يحلم بدفء
العش وحرارته ..

كانت باريس ، في هذه الأسابيع الأولى من شباط ، تحصي
خرايبها بعد القارة الأخيرة ، وتلحس جروحها الطرية بعد ...
وكانت الصحافة تعوي بعد أن كادت تحتق أشدة ما ضيق الخناق
عليها ، وتثار لنفسها من الاضطهاد الذي ينزلونه بساحتها ؛
أما السلطة فنحارب ، حسب تعبير « الرجل الذي يُنيل » ،
الفرنسيين أنفسهم ... لقد بدأ موسم محكمة الخونة . وكان
منظر الرجل الذي يدافع عن رأسه المطلوب بعناد من قبل المدعي

العام يطرب باريس بأسرها ، باريس التي لم يقضِ على هواها
المّرح أربع سنوات من الحرب ، وعشرة ملايين من الضحايا
المنهارة خلف الكواليس .

ولكن شيئاً لم يكن يُشغل بال المراهق سوى ذلك الضيف
العجيب الذي قدم يزوره . بالاشدة الغريبة التي تملكها هذه
الرؤى من الحب ، المنطبعة عميقاً في صميم الفكر ، والمجردة مع
ذلك عن كل حدود واضحة بينة العالم ! إن بير لماجز بكل
تأكيد عن تعيين شكل الملامح أو لون العينين أو صورة
الشفقين . كل ما يستطيع هو العثور على ذلك الانفعال في
باطنه . ولم تفلح سائر محاولاته لتحديد الصورة إلا في تشويهاها ، وكذلك
لم يكن نجاحه بأفضل عندما انطلق يفتش عنها في شوارع باريس .
كان يُهدّدُ إليه ، في كل لحظة ، أنه يراها وراء تلك الابهامة
العابرة ، أو هذه النقرة الفتية البيضاء ، أو ذلك البرق في
العينين اللامعتين ، فيخفق قلبه بعنف ، وتتسارع ضرباته في
حمية . ولكن الشبه مفقود بين هذه الصور الهاربة ، والصورة
الحقيقية التي يفتش عنها ، والتي يعتقد أنه يهواها ويمسّقها . ألم
يكن يهواها ؟ إنه بالضبط ليمسّقها ، ولذلك فهو يراها في كل

مكان وتحت سائر الأشكال ، فهي ابتسامة كلها ، نور بمجموعها ،
حياة بكليتها ، والرسم الدقيق لن يكون إلا تحديداً لها وخنقاً .
ولكن القلب يريد ذلك التحديد ويسمى إليه حتى يعانق الحب ،
وحتى يتملكه .

أفان يراها إذن أبداً ؟ إنه بدري وجودها ، ويعرف أنها
العش المنشود . وفي العاصفة هي المرفأ ، وفي الليل هي المنارة
تبدد الظلمة الدامسة . ياملاك الحب ، كن شفوفاً بنا ، وفي
ساعة الموت لاتهجربنا ! ..



رصيف السنين ...

كان يطوي الدرب وهو ينظر ، شاردًا ، إلى البضاعة
التي يعرضها بعض باعة الكتب المتجولين ، النادرين اليوم ،
الذين ما برحوا أميين لما كزهم العنيدة . وعندما بلغ أسفل درجات
جسر الفنون رفع عينيه ، فإذا هو يرى تلك التي ينتظرها ...
كانت تهبط السلم مثل وعلة برية صغيرة ، متأبطة رزمة
من ورق الرسم المقوى .. ولم يفكر خيال ثانية ، بل انطلق
نحوها في عزم ، وبينما هو يصعد إليها ، وهي تهبط نحوه ،
استقرت نظرات كل منهما على الآخر ، ونفذت إليه ... وعندما
صافها تسمّر في مكانه وقد ضرج الخجل وجنتيه بالحرّة القانية ،

أما هي فقد أذهبتها المفاجئة ، واصطبغت وجنتاها بدورها
عندما أحسَّت ما اعتراه من حياء . وقبل أن يمالك أنفاسه ،
تجاوزته خطوات الوعلة وابتعدت ، حتى إذا وجد القوة أخيراً
واستطاع أن يلتفت في أثرها كان ثوبها يحتفي عند منعطف
الشارع المطل على درب يلتقي برصيف السين . ولم يجرب اللاحق
بها ، بل كان يرى إلى نظرتها ، وهو يعتمد درابزون الجسر ،
في مياه النهر الجارية ... إن قلبه يملك ، لبعض الزمن ، مؤونة
جديدة ... (إيه ، يأيها المراهقون السخفاء الأحماء !) ...

وبعد أسبوع ، كان يتمشى في حديقة اللوكسمبورغ التي
تغمرها ذكاء وتلوها بعدوبتها المذهبة ... ما أجمل شباط المشمع
في هذه السنة المحزنة الكئيبة ! كان يحلم وعيناه مفتوحتان ،
لا يدري إن كان يحلم ما يرى ، أم يرى ما يحلم ، يسير في خدر
جشع دون هدف معين ، سعيداً ، شقيماً ، عاشقاً ، مشرباً
حناناً وشمساً على حدٍ سواء ، مبتسماً وهو ينقل خطاه ، شارد
العينين ، تتحرك شفقاته دون دراية منه ، تتمنان كلمات
لا ارتباط بينها ، كلمات أغنية لا تنهي . كان يشخص إلى الرمال
ذاهلاً ، فراوده الشعور بأن ابتسامته قد مرت سرية خفيفة إلى

جانبه ، فكأنها خفقان جناح حمامة لطيفة أثناء طيرانها في الفضاء
الحرم المديد . واستدار فرأى أنه قد صادفها ، وأنها تلتفت هي
الأخرى ، دون أن تتوقف عن المسير ، تراقبه مفترقة شفتاها
عن ابتسامة لطيفة . وعندئذ لم يتردد أبداً ، بل ذهب
إليها . ممدود الذراعين تقريباً ، يحمله انطلاق فتى ساذج ، فيمارحت
هي تنظره بسذاجة أيضاً . ولم يحسباً ضيقاً ، كان يخيل إليهما
أنهما يتابعان حواراً سبق أن بدا .

قال :

— أنت تسخرين مني . لك ملء الحق في ذلك .
— أنا لا أسخر أبداً . (كان صوتها ، مثل خطواتها ، حياً
رخصاً) . كنت تضحك لو حدثك ، فضحكت لما رأيتك .
— كنت أضحك حقاً ؟
— أنت تضحك الآن أيضاً .
— الآن ، أنا أعلم لماذا !
ولم تسأله السبب في ذلك ... سدارا جنباً إلى جنب ،
وكانا سعيدين ...

قالت :

— يا لشمس الصغيرة الجميلة !

— يا لربيع الوليد !

— أ كنت تبشُّ له قبل برهة وجيزة ؟

— ليس له وحده ، لربما لك أنت أيضاً .

— يا لكذاب الصغير ! يا لخبيث ! إنك لاتعرفني .

— إن كان يمكن ادعاء ذلك ! لقد التقينا من قبل ...

كم مرة ، لأدري ؟

— ثلاث مرات ، إذا اعتبرنا هذه أيضاً .

— آه ، أنت تذكرين ! ألا ترين إذن أننا صديقان قديمان ؟

— فلنتحدث عن هذه الصداقة !

— بكل طيبة خاطر ! إن ذلك غاية ما أريد . أوه ، فلنجلس

هناك ! لحظة قصيرة ، أفلا تريدان ؟ ما أحلى الجلوس عند

حافة الماء .

كانا قريبين جداً من عين « غالاتيه » التي يحصنُها بعض العمال

بألواح من الخشب درءاً لخطر القنابل .

— إني لأستطيع ، فالحافلة ستفوتني ...

وذكرت الزمن ، فبين لها أن لديها بعد مايزيد عن خمس وعشرين دقيقة . بلى ، ولكنها تريد قبلاً أن تتابع عصورها من زاوية شارع راسين حيث يباع خبز صغير جيد للغاية ، فأسرع يتناول واحداً من جيبه :

— ليس أفضل من هذا ... هلاً تناولت شيئاً منه ؟ ...
فضحكت وترددت ، فوضع الخبز في يدها واحتفظ باليد في يده :

— إن ذلك ليس عذني جداً .. تعالي ، تعالي واجلسي ! .
وقادها إلى مقعد خشبي يقع في منتصف الممر الذي بجانب البركة .
— لدي شيء آخر أيضاً ...

— أيها الشره ، ماذا تملك بعد ؟
فتناول من جيبه لوحاً من الشيكولاتة ...
— ولكنني آسف ، فهو بدون غلاف ...

— أعط ! أعط ! إنها الحرب !
وراقبها وهي تقضم اللوح ، وقال :

— الحق إنها المرة الأولى التي أفكر فيها أن للحرب جانباً حسناً !

— أو اه ! هلاً أعرضنا عن الكلام عنها ! إن الحديث عنها
ليسحق بصورة فظيعة .

فقال متحمساً :

— الى ! إننا لن نتكلم عنها أبداً .

وخفت وطأة الجوِّ على حين غرة .

— انظر هذه المصافير كيف تستحم !

وأشارت إلى المصافير الدورية المزينة على حافة العيز .

— إذن ، فأنت في ذلك المساء (كان يتابع أفكاره) ، في ذلك

المساء في المترو . قولي ، لقد رأيتني إذن ؟

— طبعاً !

— ولكنك لم تتطاعي أبداً في اتجاعي . لقد بقيت طوال

الوقت تنظرين إلى الجهة المقابلة . هكذا ، كما تفعلين الآن ..

كان يراها جانبيًا ، وهي تقرض خبزها وتتطالع إلى الأمام

منها بعينين خبيثتين ..

— .. أنظري إليّ قليلاً !... إلامَ تتطالعين هناك ؟ ..

ولم تلتفت ، فأمسك بيدها اليمنى التي كان قفاها المنعرق

عند الخنصر بكشف عن طرف الاصبع الصغيرة .

- إلامَ تنظلمين ؟

- أنت الذي تنطلع إلى قفازي !.. هل سمحت بألا تزيد في
إتلافه ؟

كان منهمكاً ، شارد الدهن ، في توسيع الشق الصغير فيه ..

- أوه ، عفواً !.. ولكن ، كيف استطعت رؤية ذلك ؟

ولم تجب ، ولكنه رأى ، في الصورة الجانبية الساخرة ،
طرف العين التي تضحك .

- آه ، يا خبيثة !

- ذلك بسيط للغاية ، فسائر الناس يفعلون هكذا .

- أنا ، إني لن أستطيع ذلك قط .

- جرب !.. ولكنك تشوص ..

- إني لن أستطيع ذلك مطلقاً كي أرى يجب أن أتطلع أمامي
رأساً ، بكل غباء .

. - ولكن لا ، ليس بكل هذا الغباء !

- وأخيراً ، إني أرى عينيك .

وتبادلا النظر ، وهما يتضاحكان بمذوبة ..

- كيف تسمين ؟

— لوس .

— ما أجمله اسمك ، جميل مثل النهار !

— واسمك ؟

— بيير ... مستعمل للغاية .

— إسم جري ، له عينان شريقتان صافيتان .

— مثل عيني ؟

— فيما يتعلق بالصفاء ، نعم .. فهما صافيتان .

— ذلك أنهما تطلعا إلى لوس .

— لوس ! يقولون « آنسة » !

— كلا .

— كلا ؟

— فهز رأسه نفياً ...

— أنت لست « آنسة » . أنت لوس ، وأنا بيير ...

كانت يداهما متشابكتين . واعتصما بالصمت ، وكلٌّ يتفادى

نظرات صاحبه ، وعيونهما عالقـة بزرقة السماء الناعمة المطيـة عليهما من

خلال أغصان الأشجار العارية . كانت أمواج أفكارهما ، من خلال

يديهما ، تتلافى وتمزج ...

قالت :

-- في ذلك المساء كنا ، نحن الاثنين ، خائفين !

فأجاب :

-- نعم ، وكان ذلك حسناً !

وفيما بعد فقط ابتسما لأن كلاهما قد عبّر عما كان
يعتاج في صدر الآخر ... وأفلتت يدها منه بغتة ، وهبت على
قدميها إذ سمعت دقات الساعة :

-- أواه ! يكاد الوقت يفوتني !..

وذهبا معاً بتلك الخطى المسرعة التي تعرف الباريسيات
كيف يمحّثنها بحلاوة جمّة تجبر المرء على الاعتراف بيسرها
وسرعتها معاً .

-- هل تسلكين هذه الطريق كثيراً ؟

-- بومياً ، إنما بالأحرى من الجانب الآخر من الساحة ..
(وأشارت إلى حديقة واتو وأشجارها) في طريق عودتي
من المتحف .

فنظر إلى الأوراق المقواة التي تحملها ، وسأل :

-- أقبانة أنت ؟

فأجابت :

-- كلا ! فتلك كلمة ضخمة جداً ، قل بالأحرى إني ملطخة

أوراق صغيرة .

-- لماذا ؟ أمن أجل التسلية ؟

-- أواه ! كلا ، بل من أجل المال .

-- من أجل المال ؟

-- إنه لا أمر مشين ، أليس كذلك ؟ أن يمتحن المرء الفن

كي يكسب مالا ؟

-- إن ما يدهش خاصة هو أن يكسب الإنسان المال إذا

كان لا يعرف فن التصوير .

-- وإن ذلك بالضبط ما يدهش . مدأوضح لك كل شيء في

فرصة أخرى .

-- في فرصة أخرى ، عند العين ، سوف نتعصر أيضاً .

-- سوف نرى ، إن كان الطقس جميلاً .

-- ولكنك ستأتين في وقت أبكر ؟ أليس كذلك ، قولي .

يا لوس ..

كانا قد بلغنا المحطة ، فقفزت على سلم القاطرة ...

— أجبني ، قولي ، أيها النور اللطيف .

ولم تجب لكن عندما انطلق القطار قالت : « نعم »
بجففيها ، فيما قرأ على فمها ، دون أن تنطق بالكلمات :
— نعم ، ياسير .

وفي الطريق ، كان كلاهما يفكران :

— عجباً ! مبال الناس مسرورين هذا المساء ؟

كانا يتسلمان دون أن يحاولا إدراك ما حدث . كان كل
ما يعرفان أنهما « يملكانه » ، أنهما يمسكان « به » ، و « أنه » قد
أصبح في حوزتهما . ما هو ؟ لاشي ألبقة . لهما ثريان هذا المساء ...
وفي الدار تطلعا إلى صورتها في المرآة بهمين حنونين ، فكأنهما
ينتظران صديقاً عزيزاً . وكان يقول لنفسه « لقد وقعت نظرتها
عليك » . وكانت تهمس في سرها « لقد كانت نظرده عليك » .
ولجأ في ساعة مبكرة إلى الفراش متعبين ، منهوكي القوى --
لماذا ؟ بنو أن تحت عبء كل لذيذ .

كانا يفكران ، وهما يخلعان ثيابهما :

— من حسن الحظ ، الآن ، أن ثمة غداً !

غداً! إن الذين سيأتون بعدنا لن يتصوروا ، إلا بأعظم
العناء ، ما كانت تثير هذه الكلمة من بأسٍ صامت وملل
لأفراح له أثناء السنة الرابعة من الحرب .. إن إعياء هائلاً يئيد
على النفوس حتى يكاد أن يخفها ! ما أكثر ما خابت الآمال ،
ومن نبل كانت عذيباً! .. وهذه مئات المدايح شبيهة بالبارحة
واليوم ممأ ، منذورة جميعاً ، على حدٍ سواء ، للعدم والانتظار ،
لانتظار العدم . وهذا الزمان قد فقد مجراه الطبيعي المألوف ،
فاذا العام الحالي أشبه ما يكون بفصلين يطوق الحياة بدائرتيه
ذات المياه السود الدسمة وبضيق عليها الخناق ، تملو في تياره ،
هنا وهناك ، موجات قائمة مظلمة تلوح وكأنها أقلمت عن

الجريان إلى الأبد . غداً ؛ إن الغد قد مات .

أما في قاب الطفلين ، فقد بُعث الغد من قبره ..

رآهما الغد جالسين من جديد قرب العير ذاتها ، وكذلك
كلُّ غداٍ تلاه .. وكان الطقس الجميل ينعم على هذه اللقي القصيرة
جداً ، والأقصر يوماً بعد يوم ، الحامل إليها كل منها
عصوره بغية أن يحظى بلذةٍ مبادلته بعصورٍ رفيقه . إن
يسير حالياً ينتظر عند باب المتحف ... وأراد أن يري إنتاجها ،
فلم تأخر أبداً في تلبية طلبه ، وإن لم تكن فخورةً مطلقاً
بما صنعت يداها .. وكان ذلك الانتاج يتألف من نسخ مصنّرة
لبعض اللوحات الشهيرة ، أو لأجزاء من تلك اللوحات تمثل
جماعات أو أشخاصاً أو بعض النمايل أيضاً . ولم يكن في تلك
الرسوم ما ينفر للوهلة الأولى ، وإن كان الإهمال واضحاً في
سائر ثنائياها ... وكنت تجد هنا وهناك خطوطاً صائبة وجميلة
نوعاً ما ، ثم تقع إلى جانبها على أخطاء تلميذٍ ناشئٍ ، لاندلج
على جهل أساسيٍ فحسب ، بل على عدم مبالاة مطبقة بما يمكن
أن يخطر في بال الذين يشاهدونها — « لماذا ؛ إنها جسنة كفاية
هكذا ! » — وراحت لوس تذكر أسماء اللوحات المنقولة ...

كان بير يعرفها جيداً ، فلا يلبث وجهه ، كلما صاغت عيناه صورة جديدة منها ، أن ينقبض استياءً وخيبة أملٍ . وتشعر لوس باستياءه ، ولكنها تبذل كل شجاعته كي تعرض عليه الرسم كلها ... إليك هذه أيضاً ..

أف !.. هذه أبشع مألديها ! كانت شفقتها تفتقر أن عن ابتسامة ساحرة تهزؤ من الفنانة ومن بير في الوقت ذاته ، وإن كانت لاتحمل أثراً من الغيظ مطلقاً . ويضمُّ بير شفقيه بعنف كيلا يتكلم . ولكن مشاعره تغلبت عليه في النهاية ، فاندفع يقول عندما طلعت عليه بنسخة منقولة عن إحدى لوحات رفايل المحفوظة في متحف فلورنسا :

— ولكن هذه الألوان مغلوطة !

فقال :

— أوه ! لارب أن الألوان رائمة إذن ! أنا لم أذهب إلى هناك كي أرى الأصل ، بل نقلتها عن صورة فوتوغرافية .

— أفلا يقولون لك شيئاً بخصوص ذلك ؟

— من ؟ الزبائن ؟ ولكنهم لم يذهبوا ليروها هم أيضاً .. ثم إنهم عندما يرون إليها ، فهم لا يتمنون فيها كثيراً ! الآخر ،

الأزرق ، الأخضر ، إنهم لا يرون في هذه الألوان إلا النار فقط ...
وأحياناً قد أملك الأصل بألوانه ، فأروح أبدل فيها ... خذ
هذه مثلاً ...

وأرته صورة ملاك لموريللو .

— أنجدين هذا أفضل ؟

— كلا ، ولكنه يلذ لي فقط ... ثم إنه أسهل بالنسبة إلي ...

وبعد فسيان ذلك عندي . المهم هو أن تباع الصورة ...

ولدى ذلك توقفت عن المسير ، واستردت منه تلويناتها ،

ثم انفجرت في عاصفة من الضحك ...

— وبي ! إن ذلك لا يشع مما كنت تتصور ؟

فقال حزينا :

— ولكن لماذا ، لماذا تصنعين مثل هذه الأشياء ؟

فنظرت إلى وجهه الأتس المقطب وعلى شففتها تيه ابتسامة

سخرية حنون أمومية : يا لهذا البورجوازي الصغير العزيز الذي

كان كل شيء ميسوراً له ، والذي لا يتصور أن يضطر المرء

أحياناً إلى التنازل عن بعض الأمور ...

وعاد يسأل :

— لماذا ؟ قولي لماذا ؟

كان شديد الارتباك ، فكأنه هو الذي لطّخ تلك الأوراق
على تلك الصورة الفظيعة .. أيها الصبي الصغير الطيب القلب !
ووددت أن تقبلته ... بكل تعقل وحكمة ، على جبينه .

وأجابت بصوت مخفوض عذب الرنين :

— ولكن ، كي أعيش .

بغته الجواب بعنف . ذلك لم يخطر له على بال أبداً ...

فمادت تقول بنغمة ساخرة لامبالية :

— إن الحياة لمشكلة معقدة ... يجب قبل كل شيء أن يأكل
المرء ، وأن يأكل يومياً دون انقطاع . لقد تناوات عشاءك
مساء ، وفي الغداة يجب أن تعيد الكرة مرة أخرى . ثم لابد
من الثياب ، يجب أن تكسو كل شيء ، جسدك ، ورأسك ،
ويديك ، ورجليك .. إن الكيل ليطفح بكل هذا ! ثم ينبغي
أن تدفع ثمن كل شيء ، فالحياة إن هي إلا دفع مستمر .

، والمرة الأولى شاهد ماخفي عن قصر نظر عيني حبه : الفرو

المنواضع الذي سقط الوبر منه في بعض أجزائه ، والحدائث
المهترئين قليلاً ، وآثار الضائقة التي تعرف الأناقة الطبيعية
المنمتعة بها الفتاة الباريسية كيف تخفيها .

وانقبض قلبه ...

— أواه ! أفلمست أستطيع ، أفلمست أستطيع أن أساعدك ؟
فابتعدت عنه قليلاً ، وقد ضربت حمرة الخجل وجنتيها ..
قالت مغناظة :

— كلا ، كلا ! ليس ما يدعرك لذلك .. أبداً .. لست في حاجة ..
— ولكنني سأكون سعيداً جداً إذن !
— كلا .. فلنصدف بعد الآن عن هذا الحديث إتناان
نظل صديقين ...

— فنحن صديقان إذن ؟
— نعم ! يعني إن أردت أن تظل كذلك بعد أن شاهدت فزاعاتي .
— بكل تأكيد ! فالذنوب ليس ذنبك !
— ولكن ذلك يسببُ لك ألماً وعناء .
— أوه ! بلى ...

فضحكت عن رضى وسرور ..
— ذلك يضحكك ، أيتها الخبيثة ؟
— كلا ، ليس في ذلك شيء من الخبث . إنك لا تفهم .
— لم تضحكين إذن ؟

— لن أقول لك ذلك قط !

كانت تفكر : « يا حَيِّ ! ما أطفك إذ تفألم لا نِي صنعت
شيئاً قبيحاً ! »

قالت :

— إنك طيب القلب . شكرآ !

فشخص إليها بعينين تطفحان دهشة ...

قالت ، ضاربة بلطف على يده

— لا تجرب أن تفهم ذلك .. كفى ، فلنتحدث عن شيء آخر .

— نعم .. كلمة أخرى فقط . بودي رغم كل شيء أن أعرف ..

قولي لي (ولا تسنائي) ... هل أنت ، حالياً ، في ضائقة ؟

— كلا ، كلا ! لقد قلت ذلك قبل برهة لأننا عرفنا أوقاتنا

سيئة من حين لآخر . أما الآن ، فالحال أفضل . لقد وجدت

أخي عملاً ، وهي تتناول عليه أجراً طيباً .

— أنشتغل أمك ؟

— نعم ، في مصنع للذخيرة ، وتقبض اثني عشر فرنكاً

يوميًا . تلك ثروة ، وربي !

— في مصنع ! مصنع حربي ؟

— نعم !

— ولكن هذا فظيع !

— يا الله ! ولكن المرء يأخذ مايسنح له !

— ولكن ، يا لوس ، إذا أنت ، أنت ، عرضوا عليك ؟ ..

— أنا ، ولكنك ترى جيداً أني أخربش ... آه ، أنت ترى

أنى محقة في صنع هذه الخربشة !

— ولكن إن اضطررت إلى كسب عيشك ، ولم تجدي

وسيلة أخرى سوى العمل في أحد تلك المعامل التي تصنع

القنابل ، فهل تقبلين ؟

— إن اضطررت إلى كسب عيشي ، ولم أجد وسيلة أخرى ؟ ..

ولكن بكل تأكيد ، سأقبلُ إذن على العملَ عدواً !

— لوس ، ألسنت تفكرين فيما يصنعون هناك ، بين جدرانها ؟

— كلا ، لست أفكر أبداً

— كل ما يؤلم ، ويعيت ؛ كل ما يمزق ، ويحرق ، ويكيل

العذاب لي كأنات مثلك ، مثلي ...

فوضعت يدها على فخها ، تشير عليه بالصمت والسكون .

— أنا أعرف ، أنا أعرف كل ذلك ، ولكن لا أريد أن

أفكر فيه .

— لا تريد أن تفكري فيه ؟

فقالت :

— كلا !

وأضافت بعد برهة وجيزة :

— يجب أن نعيش . إذا فكرنا ، فإن نعيش إذن .. أنا ،

إني أريد أن أحيأ ، أريد أن أحيأ .. وإذا أجبروني ، كي أحيأ ،

على صنع هذا الشيء ، أو ذاك ، فهل سأروح أعدب نفسي

من أجل هذا الشيء أو ذاك ؟ ذلك لا يعني ، ولست أنا التي

أريده . إن كان ذلك شراً ، فليس الجرم جرمي . أنا ، إن

ما أريده ليس شراً .

— وما تريد ؟

— أريد أن أعيش أولاً .

— أتحيين الحياة ؟

— ولكن لي ! هل أنا مخطئة في ذلك ؟

— أوه ! كلا ، ما أحسن بقاءك على قيد الحياة !

— وأنت ، أفلمت تحب ذلك ؟

— لم أكن أحبه حتى ..

— حتى ؟

لم يكن السؤال في حاجةٍ إلى جوابٍ كان كلاهما يعرفان
الجواب حق المعرفة .

قال بيير ، ملاحظاً فكرته :

— لقد قلتِ : « أولاً » .. « أريد أن أعيش أولاً » ...

وماذا بعد ذلك ؟ ماذا تريدِينَ ؟

— لأدري .

— بلى ، إنك تدرين...

— إنك لكثير الفضول حقاً .

— نعم ، جداً .

— إن الإصرار بذلك إليك سيضايقني ...

— أذكره لي ، في أذني ، ولن يسمعه أحد عندئذٍ .

فابتسمت :

— أريد . (وترددت) . أريد قليلاً جداً من السعادة .

كانا قريبين جداً من بعضهما البعض ...

وتابعت :

— أفني ذلك شيء من الطمع ؟ .. كثيراً ما قالوا لي إن فيه

كثيراً من الانانية . أما أنا ، فأقول في نفسي أحياناً : « فِيمَ
لنا الحق إذن ؟ » .. عندما يرى المرء إلى كل هذه التعاسات ،
إلى سائر هذه الآلام التي تحيق به من كل جانب ، فهو لا يجرؤ
إذن على المطالبة بالكثير .. ولكن قلبي ، بالرغم من كل شيء ،
يطلب ويهتف : « لي ، إن لي الحق ، لي الحق في قليل ، في
قليل جداً من السعادة .. » .. قل لي بكل صراحة : أأنك أنانية
مني ؟ أتجد في ذلك شيئاً كثيراً من الشر ؟

وأخذته موجة عالية من شفقة لامتناهية ... هذه الصرخة
الصادرة من القلب ، هذه الصرخة الصغيرة ، المسكينة ، الساذجة ،
قد هزته حتى أعماق أعماقه . وترقرقت عيناه بالدموع .. كانا
يحيان ، وقد افترقا الدكة جنباً إلى جنب ، يعتمد كل منهما
على صاحبه ، حرارة فخذيهما .. وودّ أن يستدير ، وأن يحتويهما
بين ذراعيه . ولكنه لم يجسر على الحركة اثلاً فلت منه زمام
عاطفته . كما يتطلعان ، لأحرك بهما . إلى الأمام منهما ، إلى أقدامهما .
قال بسرعة كبيرة ، وبصوت ملتهب مخفوض ، حتى لا تكاد
الشفقتان أن تتحركا بالكلمات :

— أواه ، يا جسدي الصغير العزيز ! أواه ، يا قلبي ! لا وُدَّ

أن أمسك قدميك الصغيرتين بين يدي ، على فمي ... لاؤد
أن ألهمك بكليتك .

ودون أن تنحرك ، بسرعة عظمى وبصوت مخفوض جداً ، مثله ،
قالت والاضطراب يملك عليها مشاعرها :

— أيها المجنون ! أيها المجنون الصغير !.. صمتاً ... أتوسل إليك ...

ومرّ بالقرب منهما متنزهً عجوز يسير الهويناء .. كأننا يشمران بكلا
جسديهما يذوبان جنائياً ...

إن المرمر مقفر الآن : وثمة عصفور دوري ، منفوش الريش ،
يثب فوق الرمال مرحياً ، والعيون تسافط قطراتها الصافية
تتري ... واستدار وجهاهما ، في حياء ، كل في اتجاه الآخر . ولم
تكد نظراتهما تتلاصق حتى انضم فوهاهما ، في انطلاقة عصفور ،
خافين ، متعجلين : ومن ثم طارا متباعدين .. ونهضت لوس ،
وذهبت ... ونهض بدوره ، فقالت له « إبق ! »

وتلاشت منهما الجرأة على تبادل النظر . وهمس أخيراً :

— لوس ... هذا القليل جداً .. هذا القليل جداً من السمادة ...

قولي ، الآن ، إتنا نملكه !

واعترض الزمان هذه الألقى عند العين حيث تنادي المصافير
الدورية وتنأغي ، وجاء الضباب الكثيف يحجب شمس شباط
الباهتة ويخفيها ، ولكن يعجز عن إطفاء تلك الشمس اللاهبة في
قلبيها . آه ! سيّان عندهما حالة الطقس ، أفرأ كان أم حراً ،
مطراً أم ريحاً ، ثلجاً أم شمساً ! ذلك حسن دوماً ، لا بل لعله
أفضل أيضاً ، إذ عندما تكون السعادة في طور النمو ، فأجمل
الأيام هو دوماً اليوم الحاضر . . . وجعلاً من الضباب ذريعة كيلا
يفترقا أبداً ، طوال جزء كبير من النهار ، فخطر اكتشاف
عيون الرقباء لهما يتضاءل كثيراً في حماه . . . إنه ينتظرها
صباحاً في موقف الحافلة ، ثم يصحبها في جولاتها عبر باريس

الواسعة ، وقد رفع ياقة معطفه ، بينما تقبّعت هي بقائمه من
أفرو ، وتنكّبت ثيابها المحيط بكتفها حتى الذقن ، والنفت
بوشاحها وضمته جيداً حول وجهها بحيث تبرز شفاتها من ورائه
على هيئة حذبة صغيرة رائدة .. ولكن الشبكة الندية التي
بنشرها الضباب الوافي كانت أفضل وشاح لهما ، فذلك الضباب
أشبه برماد ثقيل ، رمادي ، ينخلله برق أصفر الممان ،
تستحيل الرؤية فيه حتى على بعد عشر خطوات فقط ، وهو
يزداد كثافة كلما توغل المرء في الأزقة القديمة ، العمودية على
السين .. إيه ، أيها الضباب الصديق ، حيث يستقي الحلم في
شراشف جليدية ، مرتعشاً من فرط السرور ! كأننا أشبه بفلقتي
اللوزة في غمد الثمرة ، أشبه باللهب السجين في المصباح الأعم .
وكان يميز يمسك بذراع لوس اليسرى ضاغطاً عليها ، وهما
يتوائبان جنباً إلى جنب ، متعادلين في الطول تقريباً (كانت
قامتها تملو عليه قليلاً) ، يرققان بصوت مخفوض ، وقد تقارب
وجهاهما كثيراً .. ما أعظم شوقه إلى تقبيل تلك الحذبة الندية
خلف الوشاح !

كانت تغدو إلى تاجر « الأشياء القديمة » تبينه « فجلاتها »

و « بصيلايتها الصغيرة » ، كما كانت تحب أن تقول .. ولم تتعجلا
الوصول قط ، بل هما يسلكان الطريق الاطول دون قصد
منهما (هذا ما كانا يؤكده على الأقل) ، ثم يحتملان الضباب مسؤولية
خطيئتهما ... وعندما يأتي الهدف لملاقتهما أخيراً ، بالرغم من
سائر الجهود التي بذلها في سبيل تضليله ، كان يبصر يقف بعيداً
عن الدكان الدافئة لوس إليها ، ينظر اوبتها عند زاوية الشارع .
كان ينظر طويلاً ، وجسده المقرور يرتجف ؛ ولكنه كان
سعيداً بالانتظار ، سعيداً باحساسه البارد القارس ، سعيداً حتى
بما يشغل عليه من مللٍ وضجر ، مادام يتكبد ذلك كله في
سبيلها . وأخيراً كانت تعاود الظهور ، وتسرع إليه مبتسمة ،
مشفقة ، قلقة عليه من شدة القرّ ولذعه .. وكان يدرك ، من
مجرد النظر إلى عينيها ، مدى نجاحها فيفرح به ويهال له ، حتى
كانه هو من ربح وأثري ... ولكنها غالباً ما كانت تعود صفراء
اليدين ، خافية الوفاض .. فلا بد من الجودة مرتين أو ثلاث
مرات قبل أن ينقدها أجراها ، لا بل مأسمدها عندما لا يردون
إليها العمل بفضافة وجفاء ، كما فعلوا اليوم مثلاً ، إذ عاتبوها
ووبخوها من أجل صورة مصغرة نقلتها عن رسم رجل شعاع

قضى نحبه ، لم يسبق لها أن رآته في حياتها قط . إن العائلة
ناقمة غضبي ، لأنها لم تضع لون العينين والشعر الحقيقي ، فلا بد
من عود على بدء إذن . وإذا كانت أقرب إلى الاستمتاع بالناحية
الساخرة مما تصيب من فشل ، فهي تضحك بكل شجاعة من
مغامراتها . أما بير فلم يكن يضحك ، بل يستشيط غيظاً .

— أوغاد ! ثلاث مرات أوغاد !

وإذا أطلعتة لوس على الصور المطلوب منها نسخها بالالوان ،
فهو يتحرق ازدياء - (آه ، كم كانت تسرّ لفضبه المضحك ا) -
لهذه الرؤوس الخبيثة ، المتجمدة في ابتسامات إحتفالية مهيبه .
أما أن عيني لوس متعكسان هذه التكشيرات ، ويديها مترسماتها ...
ذلك تدنيس فظيع في نظره . كلا ، إن ذلك لشنيع حقاً !
إن نسخ المتحف لا فضل على كل حال ، لكن الاعتماد عليها
مستحيل بعد اليوم ، فالمناحف الأخيرة تغلق أبوابها ، بعد أن
فقدت كل أهمية بالنسبة للزبائن . هذه الساعة لم تعد ساعة
العذارى والملائكة ، بل ساعة الذقون المشعرة والاحى المسترسلة .
إن لكل عائلة حبيباً ميتاً أو حياً ، ميتاً في غالب الأحيان ،
تريد أن تخلد ملامحه . وكان الأغنياء يريدون ذلك بالالوان ،

وهو عمل جيد الأجر ، ولكنه أصبح نادراً في هذه الأيام ،
فلا فائدة من التزم إذن ، بل لابد من تكبير الصور ، وبأجور
ضئيلة للغاية أيضاً .

ويتضح من ذلك كله انعدام كل سبب يؤخرها في باريس .
إن العمل في المنحف قد انتهى ، ولم يبق لديها إلا القدوم إلى
المخزن مرة كل يومين أو ثلاثة أيام تحمل الفوصيات القديمة وتلقى
أخرى جديدة بدلاً منها ، فأنجاز العمل ممكن إذن في البيت
بعد الآن . ولكن الطفلين لم يأبها لذلك كثيراً أو قليلاً ، بل هما
يضربان في الطرقات على غير هدى ، عاجزين عن سلوك سبيل
المحطة عمل إرادتهما .

وذات مرة دافا إلى إحدى الكنائس طلباً للراحة مما
ألمّ بهما من إعياء ، ولدفء مما أصابها من صقيع الضباب المتجمد .
وهناك اقتعدا إحدى الزوايا ، عاقلين حكيمين ، يتبادلان بصوت
خفيض الأحاديث عن الأمور القافية في حياتهما ، وهما
يشخصان إلى زجاج النوافذ في ذهول ... ومن حين لآخر ،
كان السكون يخيم عليهما ، وعندئذ تأخذ النفس ، بعد أن تحررت
من قيود الكلمات (لم يكن معنى الكلمات ما يشير اهتمامهما ،

بل نفحة الحياة فيها ، الأثبة باحتكاكات جامعة خفية تنبثق عن
هوائين مرتخمين بتلافيان دون انقطاع) ، بمثابة حديث أكثر
عمقا وأهمية . وكانت أحلام الرجاج ، وظلال الأعمدة ، ودوى
الترانيم في أرجاء المعبد ، تمتزج بأحلامها ، وتبعث فيهما ذكرى
أحزان الحياة التي يسعون وراء نسيانها ، أحزان الحياة والحنين
المعزى إلى اللانهاية في وقت واحد ... وكانت قيلولة ضاربة
إلى الصفرة تملأ المكان ، مع أن الوقت لم يتجاوز الحادية عشرة
بعد ، مثل الزيت في قنديل مقدس . ومن على ، من بعيد
جداً ، كانت أضواء غريبة تتلاحق ، تشمل فيما تشمل قرمز
موشور قائم ، ينعكس فوق أزهار البنفسج أحمر زاهياً ، وإلى
جانب كل ذلك وجوه غامضة الملامح تطوّقها إطارات حديدية
سود . وهناك ، في علياء جدار الليل ، كان دم النور يفتح جرحاً ...

وعلى حين غرة ، قالت لوس :

— هل ستُساق ؟

وفهم رأساً مانعني ، لأن فكره أيضاً قد سلك ، في السكون ،

نفس الدرب المظلم ...

قال :

— نعم . يجب ألا نتكلم في هذا الموضوع !
— شيء واحد فقط .. قل لي متى سيكون ذلك ؟
فأخبرها :

— بعد ستة أشهر .
فتنهدت ، وصعدت زفرة حرّى ..
قال :

— يجب ألا تفكر في ذلك أبداً .: مانع التفكير فيه ؟
قالت :

— بلى ، مانعة ؟
وتمالكا أنفاسهما ، كي يطردا الفكرة الداخلية ، ومن ثم
راحا - بشجاعة - (أو ربما بفضل أن يقال ، على العكس ،
« بخوفٍ وذعر » ؟ فليقرر ذلك من يستطيع أن يعرف أين
تقوم الشجاعة الحقيقية) يحملان نفسيهما ، كلاهما على السواء ،
على الحديث في موضوع آخر : نجوم الشموع المرتعشة في قلب
الأشجرة المتصاعدة . والأرغن الذي يُسَبِّحُ دون انقطاع ،
وخادم الكنيسة الذي يمرُّ بالقرب منهما ، وصندوق العجايب
والمفاجآت ، حقيبة يدها حيث كانت أصابع يبير الفضولية تتمزّه

على هواها . كانا يبدلان كثيراً من العاطفة والهوى كي يتسلما
بلا شيء . إن أباً من الصغيرين المسكينين لم يتصور قط بخـرد
خيال فكرة الأفلات من القدر المتسلط عليهما ، والذي لا بد
أن يفرق بينهما في يوم من الأيام . أن يقاوما الحرب ، أن
يتحديا تيار شعب كامل ، لا أمل من ذلك أن يرفعاه هذه
الكنيسة التي تغطيها بهيكلاها ! إن المنفذ الوحيد هو النسيان ،
النسيان حتى النائية الأخيرة ، مع الأمل الذي يحتاج في الصميم ،
الأمل في أن تلك النائية الأخيرة لن تأتي أبداً . وحتى ذلك
الحين ، فليجرعوا كأس السعادة والهناء ...

وعندما خرجا ، فيما هما يتحادثان ، جذبه من ذراعه كي يلقيا
نظرة على مروضات مخزن مرابجانبه ... كان متجراً للأحذية .
ورأى نظرتها تمسح بخنار على خفين مرتفعين من الجلد قد طوقها
سيفر لطيف المنظر ...

قال :

— جميلان !

قالت :

— محبة !

فضحك من تعبيرها ، وضحكت بدورها أيضاً ...

— أفان يكونا كبيرين قليلاً ؟

— كلا ، إنهما مناسبان تماماً .

— ماذا لو اشتريتهما اذن ؟

فشدت على ذراعه ، وجذبتة بعيداً كي تخلص من إغراء الرؤية :

— لا بدّ في سبيل ذلك من الثراء (وشرعت تصفر لحناً) ،

ولكنهما ليسا لنا !

— لم لا ؟ إن سنديريللا ، على فقرها ، قد لبست أجمل خفّين .

— في ذلك الزمان ، كانت جنّيات بعد ...

— وفي هذه الأيام ، ثمة عشاق دوماً !

فقالت في نعمة حلوة :

— كلا ، كلا ، أبدأ ، يا صديقي العزيز !

— لماذا ؟ مادمنّا صديقين .

— بالضبط من أجل هذا .

— من أجل هذا ؟

— بالطبع ، فالإنسان لا يستطيع أن يقبل من صديق .

— من عدوٍ إذن ؟

— من غريب بالأحرى . مثلاً ذلك الذي يبتاع مني ، لو أراد
أن يهديني زوجاً ، ذلك الوغد ! ...

— ولكن ، يا لوس : إن لي الحق في أن أطلب منك ، إذا
أردت ، صنع صورة لي .

فوقفت عن المسير ، كي تستغرق في الضحك .

— أنت ، تريد صورة من صني ؟ يا صديقي المسكين ، ماذا
تريد أن تفعل بها ؟ لقد استأهات كل تقدير ، فيما سبق ، عندما
شاهدتها ... أنا أعرف جيداً أن رسومي ليست أكثر من خبزة جافة
تعلق في حلقك .

— أبداً ! بل في عدادها صور رائعة حقاً . ثم ، ماذا تريدن ،
إن كان ذوقي هكذا ؟

— لقد تبدل كثيراً منذ البارحة !

— أفلا يجوز أن يتبدل ؟

— لا ، ليس عندما نكون صديقين .

— لوس . صورتي !

— آه ، حسناً ! إنه جادٌ فيما يريد .

— ولكن ، بالطبع أنا جاد كل الجدة . إني أساوي أولئك الحق

فشدت على ذراعاه في انطلاق لاشعوري ، وهي تقول :

— يا حبيبي !

— ماذا قلت ؟

— لم أقل شيئاً !

— لقد سمعت جيد

— إذن فاحتفظ بما سمعت لنفسك !

— لا ، لن أحتفظ به ، بل سأرده إليك مضاعفاً : حبيبي ،

يا حبيبي ، سوف تصوريني ، أليس كذلك ؟ لقد اتفقنا ؟

— أليديك صورة ؟

— كلا .

— كيف إذن ؟ بالطبع لا أستطيع أن أصورك في الطريق .

— ألم تقولي إنك وحيدة في الدار ، في غالب الأيام ؟

— نعم ، أيام تعمل أحي في المصنع ، ولكنني لأجرؤ ...

— أتخافين أن يرانا أحد ؟

— كلا ، ليس من أجل هذا ، فليس عندنا جيران .

— إذن ، مم تخافين ؟

فلم تجب . .

كانا قد بلغنا المحطة ؛ وبالرغم من الناس المحيطين بهما ، والمتنظرين

الحافلة مثلها ، فقد ظل الضباب يخفيهما عن الانظار ..
وكانت تنفادي ملاقة عينيه ، فأخذ كلنا يديها ، وقال بحنان :
- يا حبيبتى ، لا تخافي أبداً ...

فرفعت عينها إليه ، والنقت نظراتهما ... كانت العيون
مليئة بالاخلاص . قالت :
- إني واثقة .

وأغلقت عينها . كانت تحس أنها مقدسة عنده ...
وأفلتا الأيدي .. كان القطار يتحرك ، ونظرة بيير تسأل
عيني لوس .. استقهم :
- في أي يوم ؟
فأجابت :

- الأربعاء ، تعال حوالي الثانية .
وقبل أن تغادره ، استعادت ابتسامتها الخبيثة ، وهمست
في أذنه :

- وسوف تحمل إلي صورة على كل حال ، فليست بضليعة جداً حتى
أضورك مباشرة . نعم ، نعم ، أنا أعرف أن لديك صوراً كثيرة ،
أيها الفشَّار الصغير الخبيث !

ملوراء شارع مالاكوف ..

أزقة مهشّمة تقطعها هنا وهناك مساحات غامضة الحدود
تضيع في حقول مبهمة غير واضحة المعالم ، أزهرت فيها بين
ألواح عريضة من الخشب أكوخ المتشردين الذين يجمعون
الخروق نهاراً من شوارع المدينة وطرقاتها . وهذه السماء الرمادية
المغبرة قد استلقت بكل سمعتها على الأرض المديعة اللون التي
يتصاعد دخان الضباب من عطفها الناجلين في جو قارس البرد ،
تخترق ريحه المظام وتنخرها نحرّاً . أما الدار فالاهتداء إليها
سهل ميسور ، إذ لا يوجد على هذا الجانب من الدرب سوى
ثلاثة أبنية يتألف الأخير منها - وهو منفرد لا يقابله سوى

الفضاء من الجانب الآخر من الزقاق - من طابق واحد ألحق
به باحة ضيقة محاطة بسور قليل الارتفاع ، نما فيها شجرتان
أو ثلاث شجرات ضامرة هزيلة ، وقام في إحدى جنباتها
حديقة خضار مربعة غمرتها الثلوج المتساقطة ببساط عريض
أبيض اللون .

ولم يثر بينير أية ضوضاء أثناء دخوله ، فالتاح قد أخرج وقع
خطواته وأماها . ولكن ستائر الطابق السفلي تحركت ، ثم
فتح الباب عندما اقترب منه ، وظهرت لوس على عتبة . وتبادلا
التحية بصوت مخنوق ، في عتمة المدخل ، ومن ثم قادته إلى
الغرفة الأولى حيث مائدة الطعام . إنها تعمل في هذه الحجرة ،
وذلك مسند لوحاتها قائم قريباً من النافذة ... ولم يدريا ، للوهلة
الأولى ، ما يقولان . لشدة ما أطالا التفكير في هذا اللقاء ،
ولكن سائر الجمل التي هيئها سلفاً تعصاها الآن فتأبى الخروج .
ويروحان يتعاوران بصوت مخفوض ، مع أن الدار مقفرة إلا
منهما فقط ، أو لعلّ وحدتهما بالضبط هي السبب في ذلك ...
وبقيا جالسين طويلاً هكذا ، تفصل بينهما خطوات قليلة ،
وقد انصقت أذرعتهما بجسديهما وتصلبت حتى لا حراك بها -

بل إنه لم يفطن حتى إلى إصلاح ياقة معطفه - يتحدثان عن الطقس البارد ، وعن مواعيد الحفلات ، ويتألمان إذ يحسان مبالغ بلاهتهما .

وأخيراً بذلت جهداً عظيماً كي تسأله عما إذا كان قد حمل الصور معه ، فأسرع يتناولها من جيبه ، ولم يكده يفعل حتى دبت الحياة في كليهما . . هذه الصور وسيط يمكن الاتصال من فوقه ، فهما بعد الآن لم يعودا وحيدين ، بل هنالك أعين تتطاع إليهما وتروى ، وتلك الأعين لاتضايق أبداً . ولقد فعل بيسير حسناً (دون خبث أو سوء نيّة) إذ جاء بسائر صورهِ ، منذ كان في سنه الثالثة . كان ثمة واحدة تمثله في تنورة صغيرة ، انفجرت لوس ضاحكة سروراً وغبطة عندما رأتها ، وراحت تخاطب الصورة بكلمات حلوة تبعث على الضحك . هل اعذب على قلب المرأة من رؤية صورة الرجل العزيز على قلبها عندما كان طفلاً صغيراً بعد ؟ إنها تهدهده في فكرها ، وتمطية ثديها كي يرضعه ، لا بل لاتبعد عن الحلم بأنها قد حبلى به ! ثم إن الصورة (والمرأة ليست غريبة أبداً) حجة ملائمة جداً تذرع بها كي تقول للصغير مالا تستطيع أن تخاطب الكبير

بة . وعندما سأل أية صورة تفضلها . أجابت دون تردد :

— ذلك الطفل الصغير العزيز !

ما أشدّ رصانته ، منذ ذلك الحين ! يكاد يكون أكثر رزانة منه اليوم أيضاً .. حقا لو أن لوس وجدت المرأة (ولمها بالضبط لتجرؤ) على النظر كي تقرن بين الاثنين ، لوجدت إذن في عيني بيبير اليوم تعبيراً ينمّ عن استسلام مطلق وفرح طفولي لا تجددهما عند الصغير .. ذلك أن عيني الصبي ، هذا البورجوازي الصغير الذي ضيق عليه الخناق ، لا شبه بمصفورين سجينين في قفص ، يعوزهما النور أشدّ العوز . وهذا النور قد جاء ، أليس كذلك ، يالوس ؟ وأراد ، بدوره ، أن يرى إلى صور لوس ، فأطلعته على بنت في سن السادسة ، بمجدولة الشعر في ضفيرة ضخمة ، تضم بين ذراعيها كلباً صغيراً . وعندما شاهدت نفسها فكرت في خبث أنها لم تحب يومذاك أقل منها اليوم ، ولا بصورة مختلفة كثيراً أيضاً ! إن كل القلب الذي تملكه قد أعطته منذ ذلك الحين إلى بيبير ، إلى كلبها ! .. كان ، منذ يومئذ ، موقوفاً على بيبير ، بانتظار قدومه . ثم أطلعته أيضاً على فناء بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من سنيها ، تلوي عنقها

في كثير من الدلال والغرور . وكان هناك دوماً ، من حسن
الخط ، في زاوية الشفتين ، تلك الابتسامة اللطيفة المفعمة خبثاً ،
التي يلوج أنها تقول .

— أنت تعلم أي أنسلى ، وأنا لست جادة فيما أفعل . .
لقد نسيا تماماً ، الآن ، ما كان يقيدهما من الضيق والحياء .
وراحت تسود الصورة ... كان عليه أن يجلس دون حراك ،
والا يتكلم إلا من طرف الشفتين فقط ، بحيث كانت هي التي
تتكلم طوال الوقت . إن غريزتها لتستشعر خوفاً من الصمت
والسكون . وكما يحدث عادةً للكائنات السليمة الطوية التي تتحدث
كثيراً ، فما أسرع ما شرعت تعترف له بأمر كثيرة خاصة
من حياتها أو حياة ذويها ، لم يكن في نيتها أن ترويها قط .
وكانت تسمع إلى نفسها ، مذهولة ، تقص تلك الأشياء ،
عاجزةً عن تمالك نفسها بعد أن زالت القدم بها مرة ... إن
سكون بيير نفسه لأشبه بمنحدر يسيل النيار عليه دون توقف .
إنها تروي قصة طفولتها التي قضتها في الريف ، في مقاطعة
توريس . . حيث علفت أمها . . وهي من عائلة ميسورة الحال ،
بورجوازية الأصل . . بحب مدرّس القرية الذي كان ابناً لأحد

المزارعين فيها . وعارضت العائلة البورجوازية في الزواج ، ولكن
العاشقين كانا أكثر عناداً أيضاً . وانتظرت الفتاة حتى بلغت
السن القانونية كي توجه إنذاراتها إلي ذويها الذين رفضوا
الاعتراف بها منذ الزواج . ولقد قضى العروسان الشابان سنوات
مفعمة بالحنان والضيق المادي استنفد الزوج خلالها كل قواه كي
يضمن للبيت حياة لا ثقة ، ثم أتاه المرض أخيراً ، فقبلت الفتاة
بكل شجاعة هذا الواجب الإضافي . وراحت تقوم لوحدها بالعمل
لوحدهما من أجل الاثنين معاً . والتزم أهلها موقفهم السابق
تجاه كرامتهم الجريح ، فرفضوا تقديم العون لها . ثم مات
المريض قبل إعلان الحرب بشهور قليلة . فلم تجرب المرأة
مماودة الاتصال بعائلة الأم . كان هؤلاء على استعداد لاستقبال
الفتاة ، بشرط أن تقوم هي بالخطوات الأولى التي ستعتبر عندئذ
تعويضاً عن سلوك الأم . إنهم يستطيعون الانتظار إذن ! لسوف
يأكلان الحجارة بالأحرى ، وبكل شهية طيبة أيضاً !

ويعجب بير من قساوة قلب هؤلاء الأهل البورجوازيين ،
أما لوسي فلا تجد فيها أمراً غير طبيعي .

— أعتقد أنه لا يوجد كثير من أمثالهم ؛ ليسوا هم بالأشرار

طبعاً ، كلا ، فأنا متأكدة من أن أجدادي ليسوا كذلك
على الإطلاق ، لا بل أظن أنهم كانوا يتألمون عندما يمتنعون عن
أن يهتفوا بنا : « إرجعوا ! » ... ولكن كرامتهم قد لقيت كثيراً
من الازدلال ! وليس من عظيم ، عند الناس ، مثل محبة الذات .
إنها أقوى من كل شيء آخر . وعندما يسيئ المرء إليهم ، فليس
هناك الاساءة التي وجهت إليهم فحسب ، بل هناك أيضاً « الاساءة »
هكذا بأحرف كبيرة وبكل تجريد ... إن الآخرين على ضلال ،
وهم وحدهم محقون فيما يذهبون إليه . وهكذا يتركونك ، دون
أية نية شريرة (كلا ، في الحقيقة ليسوا هم بالأشرار أبداً) تموت
بالقرب منهم ، شيئاً فشيئاً ، بالأحرى من أن يعترفوا بأنهم قد
أخطأوا ، وأن الحق لم يكن في صفهم ... أواه ! ليسوا هم
الوحيدين في هذا المضمار ، بل إن العالم قد شاهد الكثيرين من
أمثالهم ... قل ، هل أنا مخطئة ؟ أفليسوا هم كما ذكرت ؟
وكان بير يتأمل ، وكان مصعوقاً ، لأنه كان يفكر :

— ولكن بلى ، إنهم كما ذكرت .

وطالعه على حين غرة ، من خلال عيني تلك الفتاة الصغيرة ،
الفقر العظيم الذي يسيطر في قلب تلك الطبقة البورجوازية التي

ينحدر منها ، والقحط المطلق الذي يرهق صحراء الروح ، منها بالارض
الصلبة ، الجافة ، المجذبة ، التي امتصت شيئاً فشيئاً عصارات
الحياة ولم تجدد لها ، مثلها في ذلك مثل تلك المناطق من آسيا
حيث تتلاشى الأنهر العظيمة الخصبة ، قطرة قطرة ، تحت
الرمال البلورية . هؤلاء القوم لا يحبون أبداً ، وحتى أولئك
الذين يحسبون أنهم يحبونهم ، فهم إنما يفعلون ذلك بصفتهم ملاكاً
فقط ، بحيث يضحون بهم على مذبح أنانيتهم ، وكبريائهم
القاحلة ، وذكائهم الضيق العنيد . وكان بير يرد تلك الأفكار ،
في أمي ، على أهله وعلى نفسه ، فيلجأ إلى الصمت ، ويعتصم به
فلا ينبس ببنت شفة ... وارتعش زجاج الغرفة بفعل طلقات بعيدة ،
فاندفع بير يقول بمرارة ، وهو يفكر في أولئك الأبرياء الذين
يتساقطون بالآلاف في ساحة القتال ؛

— وهذا أيضاً من صنع أيديهم .

بلى ، إن العواء الحائق الذي يندث عن هذه المدافع هناك ،
والحرب العامة ، والكارثة العظمى .. كل هذا تتحمل قسطاً من
مسؤوليته تلك البورجوازية المغرورة ، الضيقة التفكير ، بجفاف
قلبها ، ولا إنسانيتها . أما الآن ، فإن الشيطان الذي أطلق من

عقاله ان يتوقف أبداً (وهذا عدل) ما لم ياتهم تلك الطبقة ،
ويقضي عليها نهائياً ..

وقالت لوس :

— وهذا عدل .

فقد كانت ، دون وعي منها ، تتابع يميز في تفكيره ...

وانتفض هذا الأخير من رجع الصدى ، وقال :

— بلى ، عدل هذا ، عدل كل ما يجري . لقد شاخ هذا

العالم كثيراً ، فصدر حكم القضاء بحقه : يجب أن يموت !

وردت لوس ، مطرقة الرأس في خضوع كئيب :

— نعم ...

يا لهما وجهين صغيرين رصينين مطرقين تحت ثقل القضاء ، يحمل

جبينهما المجمع بالهم تلك الأفكار اليائسة !

وأخذ الظل يرتفع في الحجرة رويداً رويداً ... لم يكن الجو

فيها دافئاً ، فتركت لوس عملها ، متجلدة اليدين ، دون أن

تسمح لبيير برؤيته ، وذهبا إلى النافذة يتأملان المساء الهابط على

الحقول الحزينة واللال الشجرة . وكانت الغابات البنفسجية تؤلف

نصف دائرة ترسم على السماء الخضراء لمغبرة برذاذ من الذهب الشاحب .

إن شيئاً من روح بوفيس دي شافانس^(١) ينموذج في الطبيعة .
وصدّرت عن لوس كلمة مارة أثبتت له أنها تعرف كيف تقرأ
هذا التناسق الخفي الجميل ، فدهش لذلك تقريباً . ولكنها لم تغضب
لما بدر منه ، بل قالت إن المرء يستطيع أن يشعر بما يعجز عن
التعبير عنه ، فهي إن كانت تسمى التصوير فالذنب ليس ذنبها ،
مادامت لم تستطع تكميل دراستها في الفنون الزيدية بسبب
بعض النوفير الذي ربما كان في غير محله . ثم إن الفقر وحده
قد قادها إلى امتحان التصوير ، فما ضرورته لولا الفاقة ؟ أفلا يجد
بسير أن سائر الذين يمتحنون الفن تقريباً ، إنما يفعلون ذلك دون
ضرورة حقيقية ، بل بفعل زهو باطل يريدون به أن يشغلوا
أنفسهم ، أو لأنهم حسبوا في البدء أنهم في حاجة إليه ثم
رفضوا فيما بعد الاعتراف بأنهم قد ضلوا الطريق وأخطأوا ؛
لا يحق للمرء أن يصبح فناناً إلا إذا كان قاصراً تمام القصور عن
الاحتفاظ لنفسه بما يشعر به ، إذا كانت عواطفه تطفح عنه .
أما هي ، لوس ، فإن ما تملكه من تلك الاحساسات يكاد لا يفي بحاجة
إنسان واحد . واستدركت :

(١) فنان فرنسي .

— لا ، بل بحاجة اثنين فقط .

ذلك أنه راح ينظر إليها شذراً ..

وأخذت السمرة تمجّاح الخطوط الذهبية الجميلة التي تزين السماء ،
في حين ارتدى الحقل المهجور قناعاً من اليأس القاتل . وسأل
بيير إن كانت لوس لا تستشعر خوفاً في هذه الوحدة ، فأجابت :
— كلا .

— عندما تعودين متأخرة ؟

— ليس هناك أي خطر البتة ، فاللصوص لا يأتون حتى
هذا المكان . إن لهم عاداتهم ، فهم أيضاً بوجوازيون حقيقيون .
ثم إن لنا جاراً من جامعي الخروق يقني كلباً . أضف إلى ذلك
أني شخصياً لا أخاف . أوه ! أنا لا أفترخ بذلك ، فليس لي في
ذلك أدنى فضل أو جدارة ... أنا لست شجاعة ، ولكن
فرصة ملاقة الخوف الحقيقي لم تسنح لي بعد ... ويوم ألقاه ، قد
أصبح أكثر جنبناً من سواي من الناس . هل يستطيع المرء
أن يعرف ماهي حقيقته ؟

فقال بيير :

— أنا مثلاً ، إنني أعرف ماهي حقيقتك ...

— آه ، ذلك أكثر سهولة بالطبع . أنا بدوري أعرف
عنك . إن المرء لمعرف دوماً عن سواء أكثر مما يعرف
عن نفسه .

كان صقيع المساء الرطب ينفذ عبر الزجاج المغلق . فأحس
بمير قشيرية خفيفة تحتاج جسده برده ، شاهدتها لوس في
عنقه ، فأسرعت تهيئ له كأساً من الشوكولاته سخنتها على شملتها
الغولية ... وتناولوا مآءً عصوراً خفيفاً ، ومن ثم ألقت لوس
وشاحها على كتفيه بحنان أمومي ، فتركها تفعل مثل قط ينعم
بدفء الغطاء . وردهما جريان أفكارهما من جديد إلى القصة التي
لم تكملها لوس . قال :

— أنما الآن وحيدتان ، والدنك وأنت ، وحيدتان تماماً !
لأرب إذن أن مودنكا عظيمة جداً .
فقلت :

— نعم ، كنا كذلك .

فرددت بغير :

— كنتم ؟

فقلت ، وقد ضايقها قليلاً هذه الكلمات التي أفقت منها
دون وعي . لماذا تقول له دوماً أكثر مما تريد أن تصرح

به ؟ ومع ذلك فهو لا يسألها شيئاً . إنه لا يجزو على السؤال ،
ولكنها ترى أن قلبه يستفهم ... وما أحلى أن يعترف الإنسان
بكل شيء عندما يفعل ذلك للمرة الأولى ! إن سكوت المنزل ،
والظل النير في الحجرة ، يدفعان إلى الاستسلام .

قالت :

— أوه ، نحن مانزال متحابين كثيراً .

وتابعت بعد قليل :

— من يدري كيف تجري الأمور منذ أربع سنوات ؟
إن العالم بأسره قد تبدل .

— أتعنين أن والدتك قد تبدلت ، أم أنت التي تبدلت ؟

فرددت :

— العالم بأسره !

— في أي شيء ؟

— لا أدري ... ولكن المرء يشعر أن الصلات في كل مكان بين
الناس الذين يعرفون بعضهم بعضاً ، وحتى في العائلة الواحدة ،
لم تعد مثلما كانت عليه . والمرء ليس على ثقة من أي شيء كان :
يسأل نفسه صباحاً : « ماذا سأرى هذا المساء ؟ وهل سأعرفه ؟ »

نحن مثل ذلك المتعلق بخشبة فوق اللجة ، وهو على وشك الفرق
في كل لحظة ...

— ماذا عساه قد جرى ؟

فقالت لوس :

— لأدري ... لست أستطيع أن أعبر عما يجول في نفسي .
ولكن ذلك بدأ والحرب سوية .. إن هناك شيئاً معاقماً في
الهواء ، والناس جميعاً في اضطراب وقلق . وإنك لتجد كلاً
يذهب في طريقه الخاص ، حتى أولئك الذين كانوا ، في العائلة
الواحدة ، لا يستطيعون عن بعضهم استغناء . كل يركض ،
فكأنه سكران ، وأنفه عالق بالدرب الذي يسير عليه .

— إلى أين ؟

— لأعلم ، وهم أيضاً لا يعلمون ، فيما أعتمد . إنهم يذهبون
حيث تدفعهم الصدفة والرغبة ، فالنساء يهوين عشاقاً ، والرجال
ينسون زوجاتهم ، وهم جميعاً مع ذلك قوم طيبون كانوا بلوحدون
قبلاً على غاية الهدوء ، وحسن التصرف ، إن الأخبار تترامى
إليك من كل حذب وصوب عن عائلات انفرط عقدتها واشتر
وهذا هو ما يحدث أيضاً بين الآباء والأبناء . إن أمي ..

وتوقفت قليلاً عن الكلام ، ثم تابعت :

— إن لآمي حكايتها الخاصة .

وتوقفت مرة أخرى ...

— أوه ! إن ذلك أمر طبيعي للغاية ، فهي ما تزال في شرح

الشباب بعد ، والآن المسكينة لم تحصل على كامل نصيبها من

السعادة والهناء ، إنها لم تبذل بعد كل ماملك من محبة وعاطفة ،

فهي على حق في بناء صرح حياتها مجدداً .

فسأل بيير :

— أتريد أن تتزوج ؟

فهزت لوس رأسها . إنها لاتعرف الحقيقة جيداً ... ولم يجسر

بيير على الاصرار .

— إنها ما برحت تحبني كثيراً ، ولكن شيئاً في محبتها قد

تبدل . فهي اليوم تستطيع الاستغناء عني ... يا لآمي المسكينة !

لأريب أنها ستندسحق ندماً وألماً فيما لو أدركت أن محبتها لي

لم تعد تحتل المكان الأول في قلبها ، إنها لن تعترف بذلك أبداً .

— حقاً ، ماأسخف هذه الحياة !

كانت ابتسامتها عذبة حزينة ، لاتخلو من بعض الخبث أيضاً .

ووضع يده بحنان فوق كلتا يديها المستلقتين على المائدة ، وظل
دون حراك .. قال :

- إنا كنا مسكينة .

فأجابت بعد لحظة :

- نحن ، ما أعظم هدوءنا ! أما الآخرون فالجنى تملكهم :
الحرب ، المصانع ، فهم في عجلة من أمرهم ، إذ يجب أن
يعملوا ، وأن يعيشوا ، وأن يفرحوا ...

فقال بيير :

- بلى ، إن ساعة اليوم قصيرة .

فقالت لوس :

- وهذا سبب جديد يدفعنا إلى الصدوف عن العدو ، إذ سوف
نصل دوماً مبكرين في النهاية . فلنمشِ إذن بخطوات وثيدة .

فقال بيير :

- ولكننا هي التي تعدو ، ويجب أن تمسك بها جيداً .

فصاحت لوس ، وهي تمسك بيده :

- إني أمسكها ، إني أمسكها ! ..

وهكذا ! كانا يتحدثان ، كل بدوره ، في شتى المواضيع بحنان .

ورزاةٍ فكأنهما صديقان قديمان . وكانا حريصين دوماً على أن
تظل المائدة فاصلاً فيما بينهما ..

وفجأة ، لاحظا أن الليل قد ملأ الغرفة ، فانتصب بيير بتسرع ،
ولم تسعَ لوس للمسالك به . لقد انقضت الساعة القصيرة ، وهما
يخافان من تلك الني قد تأتي الآن .. وتبادلا تحية الوداع بذات
الاعتصاب وبنفس الصوت الخفيض الحنون اللذين تبادلا بهما تحية
اللقاء .. وعند العتبة ، لم تجرؤ يداهما على تبادل الضغط إلا بصعوبة عظمى .
وبعد أن أغلق الباب ، عندما أضحي قرب مخرج الحديقة ، إذ
التفت نحو نافذة الطابق السفلي للمرة الأخيرة ، شاهد - في الانكسار
الأخير للقيولة النحاسية - قامة لوس تتبعه ، في ارتياب الضوء القاتم
المعتم ، بوجه مشغوف ، فأسرع يعود أدراجه حتى النافذة ، وأطبق
بفمه على الزجاج المغلق .. وتلاقت شفاهما من خلال جدار البلور ،
ثم تراجعت لوس إلى قلب عتمة الغرفة ، وأسدلت الستار من جديد ...

منذ أسبوعين وهما لايدران شيئاً مما يجري في العالم ..
 قد يعتقل الناس في باريس ويُدانون دون حساب ، وقد توقع
 ألمانيا المعاهدات ثم تضرب بها عرض الحائط ، وقد تكذب
 الحكومات ، وتكيل الصحافة الشتائم تترى ، وتقاتل الجيوش وتحمل
 الموت معها حيثما حلت .. فيهما لا يقرآن الجرائد ولا يديرانها
 أدنى اهتمام . كانا يعلمان أن هناك الحرب ، في مكان ما حولهما ،
 مثلما هناك النيفوس ، أو النزلة الوافدة أيضاً ، ولكن ذلك
 لا يتصل بهما من قريب أو بعيد ، وهما يرفضان حتى مجرد
 التفكير فيه ..

ولكن الحرب ، في تلك الليلة ، ذكرتهما بنفسها .. كانا

قد سمعنا إلى السرير (فهما يهبان الكثير من قلبيهما في هذه الأيام
بحيث يتهاويان إعياءاً ، إذا ما أقبل المساء) حين صاحبت سمعهما ،
كل في حبه ، صفارة الانذار تدوي في عنف ، فأبيا مغادرة
الفراش ، بل دفن كل منهما رأسه فيه ، تحت الأغطية ، مثل
طفلٍ صغير أثناء العاصفة . لم يكن ذلك خوفاً منهما وفراقاً .
(لقد كانا على يقين تام من أن الشر لن ينالهما أبداً) ، بل
سمعنا وراء الاستغراق في حلم جميل . وكانت لوس تفكر ، في
الليل ، وهي تصيح السمع إلى الريح الجفول المزعجة :

— ما أحسن أن أسمع ، بين ذراعيه ، مرور العاصفة !
أما بير فيسد أذنيه حتى لا يسمع شيءً صفو أفكاره . إنه
يبحث في عناد ، على مفاتيح الذكرى ، عن لحن ذلك النهار
الجميل ، عن خيط الساعات العذب منذ اللحظة الأولى التي دخل
فيها بيت لوس ، عن أكثر الأصوات التي نددت عنها خفوتاً
ورقة ، وأكثر الحركات التي قامت بها ضالة وبساطة ، عن
الصور المتتابعة التي اختطفها النظر بسرعة فائقة ... من ظلٍ
يلقيه الجفنان ، أو موجةٍ من الانفعال تمرُّ سريعةً تحت الأهاب ،
مثل قشعريرة تعدو تحت سطح المياه ، حتى الابتسامة التي

تمسّ الشفتين مساً رقيقاً ، فكأنها شعاع من النور اللطيف ، أو
راحة يده المستلقية ، الغافية على نعومة اليدين العاريتين الممتدتين...
عن سائر هذه المقاطع الصغيرة الثمينة التي يحاول خيال الحب
السحري أن يجمعها في ضمة واحدة . إنه لن يسمح لضوضاء
الخارج بالدخول ، فالخارج بالنسبة إليه زائر ثقيل الظل ، بغرض
المحضر... الحرب ؟ أنا أعرف ، أنا أعرف . هي ههنا ؟ فلتنظر
إذن !.. وكانت الحرب تنتظر عند الباب ، في صبرٍ وأناة...
لأنها تعلم أن دورها آت بكل تأكيد ، وهو يعرف ذلك أيضاً ،
ولذلك لا ينجل من أنانيته . إن موجة الموت سوف تأخذه
عما قريب ، فهو ليس مديناً لها إذن منذ الآن ، سلفاً ، بأي
شيء كان ، لاشيء مطلقاً ! فليرجع الموت إذن في وعد استيفاء
دينه ! وحتى ذلك الحين فليصمت ! أو اه ! إنه يريد ، حتى ذلك
الحين على الأقل ، ألا يضيع شيئاً من هذا الزمن الرائع ،
فكل نأية هي حبة ذهب عنده ، وهو ذلك البخيل الذي
يتحسس كنوزه في جشع... هذالي ، إنه ملكي . لا تقربوا سلاحي ،
ولا حي ! هذالي حتى تحين الساعة . وعندما تأتي الساعة ؟ عساها
لن تأتي أبداً ! أعجوبة ؟ ولم لا ؟ .

وفي انتظار ذلك كان تيار الساعات والأيام يستمر في جريانه ،
وعند كل منعطف جديد تقرب زجرجة الشلالات الصاخبة .
وكان بيير ولوس مضطجعين في القارب باسترخاء يسيمان إليها . .
ولم يكونا خائفين ... حتي ذلك الصوت العظيم يهددهد ، مثل
أرغن مخفوض الصدى ، أحلامهما العاشقة . وعندما يشرفان
على الهاوية ، سوف يغلغان أعينهما ، ويتمانقان بشدة أعظم أيضاً ،
ثم ينتهي كل شيء ، دفعة واحدة . إن الهاوية توفر عناء التفكير
في الحياة التي سوف تكون ، يمكن أن تكون ، في المستقبل
عديمة الغاية . . ذلك أن لوس كانت تشعر ، سلفاً ، بالحواجز
التي ستعترض سبيل بيير فيما لو أراد أن يتزوج منها ... وكان
بيير ، بدوره ، يهاب تلك الحواجز ، ولكن بصورة أقل
وضوحاً . (إنه لا يحب الوضوح كثيراً) . فلنصدف عن
النظر بعيداً جداً إن الحياة ما وراء الهاوية ، مثلها مثل تلك
« الحياة الأخرى » التي يتحدثون عنها ، في الكنيسة يقولون
إن الناس سيمتقون فيها من جديد ، ولكنهم ليسوا على يقين تام من
ذلك . إن شيئاً واحداً نحن على يقين منه ، ألا وهو الحاضر ، حاضراً .
فلنسكب فيه إذن ، دون حساب ، كل نصيبنا الآخر من الأبدية .

وكانت لوس تسأل عن الأخبار أقل مما يفعل بيير نفسه .
هذه الأخبار لا تمنحها ؛ إن هي إلا نعاسة زائدة ، بين سائر التعمسات
التي تُسبجت منها الحياة الاجتماعية ، وليس من يعجب لذلك
إلا أولئك المعتمسون في منأى عن الحقائق العارية . وتروح
للفتاة الصغيرة ، المبكرة التجربة ، العارفة معنى التضال
من أجل الخبز اليومي - خبزنا الجوهري أعطنا اليوم .. (إن
الله لا يمطيه مقابل لاشيء !) - ترفع اللثام لصديقتها البورجوازي عن
الحرب القاتلة الساحقة التي تملك وتسيطر ، بالنسبة إلى الناس الفقراء ،
والنساء منهم بصورة خاصة ، بكل مرءاةٍ وخداعٍ ، ولكن
دون رحمةٍ أو شفقةٍ ، تحت شعار السلم الكاذب ... ومع ذلك فلم
تفصح كثيراً من الأمور أمامه ، مخافة أن تؤلمه وتبعث الحزن
في قلبه . وكان ينتابها ، عندما ترى إلى الذهول الذي يصيبه لدى
سماع حكاياتها ، شعور حنون يتفوقها عليه ، فهي مثل أكثر
النساء لا تبطن تجاه بعض بشاعات الحياة ذلك القرف الأخلاقي
والحكيم الذي يملأ نفس الفتى الصغير ... لم يكن فيها شيء من
الثائرة مطلقاً ، فلا ريب أنها كانت تقبل ، دون قرفٍ أو تقزز ،
في ظروف أسوأ من التي تعيش فيها الآن ، مهمات تبعث على

لاشتمزاز الشديد والنفور العنيف ، لتخلص منها هادئة
نظيفة لم يلحق بها أدنى رجس على الإطلاق . أما الآن ، فقد
أصبحت عاجزة عن ذلك تماماً ، لأنها تشرّبت بفعل حبها -
منذ عرفت بير - أذواق صديقها ، فهي تحب ما يحب ،
وتبغض ما يبغض ... ولكن طبيعتها الخاصة لم تكن
كذلك على أية حال ، بل هي في الأصل هادئة ضوكة ، غريبة
تماماً عن معنى التشاؤم ، ليس من شأنها الكتابة أو مظاهر العزلة
عن الحياة . إن الحياة هي كما هي ، فلنقبلها كما هي إذن ! كان
يمكن أن تكون أكثر رداءة وسوءاً ! إن مصائد هذا الوجود
الذي عرفته لوس دوماً عديم الاستقرار ، وعلى الأخص منذ
بداية الحرب ، قد علمتها عدم المبالاة بالغد . أضف إلى ذلك أن
كل اهتمام بالعالم الآخر كان غريباً عن هذه الفتاة الفرنسية الحرة
التفكير . إن الحياة لتكفيها ، ولوس تجدها جميلة ، وإن تكن
عالقة بخيط رفيع تكفي أبسط العوامل كي تكسره ، بحيث لا جدوى
في الحقيقة من العذاب بالتفكير فيما سيحمل الغد معه . إيه عيني ،
اجرعا النهار الذي يغمركم أثناء صروحه ، أما الغد فيا قلب امتسلم
باطمئنان إلى التيار !... مادام لا سبيل إلى غير ذلك !... أما الآن

مكتوبة

فلنتبادل الحب ، أليس هذا الذيداً ؟ إن لوس لتدري أنه لن يدوم
طويلاً ، ولكن حياتها ، هي أيضاً ، لن تدوم طويلاً ...
لم تكن تشبه مطلقاً هذا الفتى الصغير الذي يحبها والذي
تحب ، رقيقاً ، ملتهباً ، عصبياً ، شقيقاً وسعيداً ممماً ، يفرح ويتألم
دوماً بصورة زائدة ، الذي يستسلم ويكبو في شغفٍ دوماً ،
وهو عزيز عليها جداً ، بالضبط لأنه لا يئانلها أبداً ، أبداً لا يئانلها ...
ولكن كلاهما كانا متفقين ، في إرادة صامتة ، كيلا يتطاعما إلى
المستقبل ، عازفين عن ذلك في عناد ، هي بعدم مبالاة الساقية
القنوع النني تغني ، وهو بانكار حماسي بغوص في هاوية الحاضر ،
ولا يريد منها خروجاً ...



وعاد الأَخ الأكبر في مأذونية أيام قليلة ، فلاحظ منذ
الوهلة الأولى أَنَّ شيئاً قد تبدَّل في جوِّ ذلك البيت العائلي .
ماذا ؟ إنه لا يدري تفسيراً لذلك ، وإن كان يتضايق منه كثيراً .
إنَّ للروح لأمسة تُشاهد عن بعد عظيم ، قبل أن يتمكن
للوجدان من جسِّ الأشياء والتحقق منها . وليس أكثر من لأمسة
محبة الذات دقة وإحساساً ، فهي عند فيليب تحتاج ، وتُنقب ،
وتدهش ، لأنَّ شيئاً ما يعوزها ... أفلا تحيط به من كل حذب
وضوب تلك الدائرة الممهودة من العطف والمحبة الرافعة إليه
ضريبة الأكرام المألوفة ؟ أولئك السامعون إليه في انتباه عظيم ،
يروي لهم أقاصيصه وهو يكاد أن يضمن بها ، أهله الذين يحضنونه

باعجابهم الرؤوم ، الأخ الأصغر ؟ ... وقوفاً ههنا ! إنه هو ،
بالضبط ، من لا يستجيب النداء !

إنه حاضر دوماً ، ولكنه لا يترامى على أخيه كما كان يفعل
من قبل ولا يستعظمه اعترافاته ^ككالعادة ، هذه الاعترافات التي
يغبط الكبير بامساكها عنه . يا محبة الذات المسكينة ! إن فيليب
الذي كان يُبدي ، في المرات السابقة ، شيئاً من الاعياء الوافي
والساخر معاً تجاه أسئلة أصغره الملتهبة ، لناقم هذه المرة لاعراض
أخيه عن التوجُّه إليه بمثل تلك الأسئلة بالذات ... ويروح
يسمى لاستفزازها ، فيزداد بلاغةً في أحاديثه ، وهو يتطلع إلى
بيير بطريقة خاصة طوال الوقت ، فكأنه يريد أن يوحى إليه
بأنه إنما يروي أقاصيصه من أجله خصيصاً . ولا ريب أن بيير ،
في غير هذا الحين ، كان يختلج فرحاً وغبطة فيتلقف ما يلقى إليه
أناء طيرانه في الفضاء ... ولكنه ترك لفيليب مهمة النقاطه من
الأرض هذه المرة ، اللهم إن كانت له رغبة في ذلك . واغتاظ
فيليب ، فجرب أن يسخر منه ، فاذا الآخر ، بدلاً من أن
يضطرب ويختار ، يَكِيل له من الكيل ذاته . وأراد فيليب أن
يناقش ، فتحمس ، وراح يعظ الفتى الصغير ، ولكنه مالبت أن

لاحظ بعد هزيمته أنه إنما يخاطب نفسه وحدها .. كان بيير يرى
إليه مستغرقاً في حديثه وكأنه يقول له :

— لا بأس عليك ، يا صديقي الطيب ! إن كان هذا يرضيك فاستمر
فيه ! إني أصغى إليك ..

بالإلتسامة الصغيرة الوقعة ! .. لقد انقلبت الأدوار !...

ولجا فيليب إلى الصمت مغتاطاً متألماً ، وراح يرقب بانتباه
زائد الأخ الصغير الذي لم يعد يُعنى به أو يبالي مطلقاً . لشدة
ما تبدلت طباعه وتغيرت أطواره ! إن الوالدين ، اللذين يريانه
يوميًا وبعيشان وإياه سوية ، لم يلاحظا شيئاً جديداً في فتاهما
أبداً ، ولكن عيني فيليب النافذتين ، والغيورتين بالاضافة ، لم
يلقيا - بعد غياب عدة أشهر - نفس التعبير الذي ألفناه في الحيا
المشوق إليه . كان بيير يبدو سعيداً ، متعباً ، طائشاً ، لامبالياً
بالناس ، غير معنيٍّ بالأشياء ، ساجحاً في جوٍّ من الحلم اللذيذ
فكأنه فتاة في إبان الصبا وميعته . وأدرك فيليب أنه لم يعد ،
بعد الآن ، شيئاً في فكر الأخ الأصغر .

ولما لم يكن أقل خبرة في تحليل عواطفه منه في مراقبة
الآخرين ، فما أسرع ما وعى للغيظ الذي أمّ قلبه فراح بسخر

من نفسه ويهزؤها ... وإذ نحى محبة الذات جانباً ، فقد شرع
يعنى ببير عناية خالصة مجردة ، ويبحث عن سر تحوله الجديد
الغامض .. لشد ما كان يود أن يستدر اعترافاته ، ولكن
تلك مهمة لم يعتد عليها أبداً . أضف إلى ذلك أن الأخ الصغير
لم يكن يحتاج ، فيما يبدو ، إلى من يعترف إليه ، فهو يتطلع
إلى فيليب الذي يجهد في إبقائه مرتبكا حائراً ، وقد كست
محياء سيماء اللامبالاة والبلادة ، ويجب على الأسئلة في غموض
وإبهام ، دون أن يعير كثيراً من سمعه إلى ما يقال له أو
يطلب منه ، وقد دفع يديه في جيبيه ، مبتسماً شارد الفكر ،
وشفتاه تصفران لحناً لطيفاً .. ومن ثم ينطلق إلى عالمه الخاص .
هكذا على حين غرة ودون سابق إنذار - عموا مساءً ! إنه لم
يعد ههنا ، ولم يبق منه إلا انعكاس صورته في المياه التي تفلت
من بين الأصابع كلما أطبقت هذه عليها ... وعندئذ يحس فيايب
ويقدّر ، مثل عاشق مرذول ، ثمن ذلك القلب الذي ضيعه ،
وهو الآن يعاني جاذبية سره الدفين ..

و ذات يوم ، جاءه مفتاح السر صدفة . كان في طريق عودته
إلى الدار مساءً ، عن طريق شارع موتبارماس ، عندما صادف

بيير ولوس يدبّان في الظل الواسع جنباً إلى جنب . واجتاحه
خوف شديد للوهلة الأولى خشية اكتشافهما لوجوده ، ولكنهما
لم يكونا بأبهان في الواقع لأي شيء يحيط بهما ، بل هما يسيران
بخطى قصيرة ، متلاصقين بشدة ، وبيير يستند بذراعه إلى ذراع
لوس ، ويمسك بيدها تعانق أصابعه أصابعها ، وقد أفعمت كل
من حركاتهما بذلك الحنان الجشع الصادي الذي يغمر إيروس
وبسبب شدة المستقلين على فراش عرسهما في الفارنيزيا^(١) ، وعناق
نظرتاهما يذنبهما ، كالشمع ، في كائن واحد... واستند فيليب إلى
جذع إحدى الأشجار ، وطفق يراقبهما وهما يعبران الطريق ،
يتوقفان بين الفينة والفينة ، ثم يتابعان المسير حتى يخفيا في دكنة
الليل وعمته... وكان قلبه يطفح شفقة على الطفلين الصغيرين ،
وهو يفكر :

— لقد ذهبت حياتي ضحية ، فليكن ! ولكن ، ليس من
العدل أن تؤخذ هاتان الحياتان أيضاً . لو أستطيع على الأقل أن
أحمل ثمن معادتهما !

وفي الغداة لاحظ بيير بغموض ، بالرغم من تماثله المتأدب

(١) فيلا في روما ، تحوي صوراً من رفايل .

عن كل ما يحفُّ به ، وفي الحقيقة ليس بصورة مباشرة بل بعد قليلٍ من التفكير ، اللهجة الودية الحنون التي يخاطبه أخوه بها ، فتطلع إليه ، وقد أفاق قليلاً من غفوة ، ليرى عينييه الطيبتين اللتين لم يرها له منذ زمن طويل ... كان فيليب ينظر إليه بصراحة عظيمة ، حتى خيل إلى بيير أن تلك النظرة تفحصه وتحترق سره ، فأسرع بغلق عليه الباب في اضطراب . ولكن فيليب ابتسم ، ونهض واقفاً ، وألقى يده على كتفه ، واقترح عليه أن يقرما معاً بنزهة قصيرة . ولم يستطع بيير أن يقاوم الثقة الجديدة الممنوحة له ، فصاحبه إلى حديقة اللوكسمبورغ المجاورة . كان الاخ الأكبر قد ترك يده مستندة إلى كتف أصغره ، وكان هذا فخوراً بالوحدة المتجددة فيما بينهما ... وحلت عقدة لسانه ، فانطلقا يتحدثان في حماسة عن قضايا الفكر ، ومطالعاتهما ، وآرائهما في البشر ، وتجربتهما الجديدة ، وبكلمة مختصرة عن كل شيء . ألهم إلا الموضوع الذي يشغل فكرهما معاً ، فكأن بينهما اتفاقاً سابقاً ينص على السكوت عنه . كانا سعيدين بهذه الألفة فيما بينهما ، التي يرافقها سرٌّ لم يعلناه عنه . وكان بيير يسأل نفسه وهو يتحدث :

- ترى ، هل يعرف ؟ ... ولكن ، كيف يمكنه أن يعرف ؟
ويرى فيليب إليه يثرثر دون انقطاع ، والابتسامة تعلو الشفتين
منه . وأخيراً توقف بيير في منتصف جملة لم يكملها ...
- ما بالك ؟

- لاشي ، إني أنظر إليك ، وإني لسرور .
وتصافحاً . وفي طريق العودة قال فيليب :
- أسيّد أنت ؟
فأوماً بيير برأسه إيجاباً دون أن يفتح فاه ..
- أنت على حق ، يا صديقي ، فالسعادة شيء حسن . خذ
نصبي منها ..

وكيلا يعكر صفو هذه السعادة فقد تفادي ، طوال مدة إقامته
في الدار ، الإشارة إلى قرب موعد استدعاء بيير للخدمة ... ولكنه
لم يستطع الامتناع ، يوم رحيله ، عن التعبير عن قلقه لرؤية
الأخ الصغير عرصةً ، عما قريب ، للمحن التي يعرفها هو كثيراً
ويعرف مرارتها . ولكن مخاوفه لم تبعث في العاشق الصغير أكثر
من ظل ضئيل بان على المحيا ، ثم أهدب يختفي هارباً . ورفع
بيير حاجبيه قليلاً كمن يطرد رؤيا بغيضة ، وقال :

— بنجر ! ... فيما بعد !... من يعلم ؟

فقال فيليب :

— إننا نعلم ذلك كثيراً .

فقال بيير ، متأثراً من إصرار أخيه :

— ما أعلمه أنا على أية حال هو أنني ، عندما أصبح هناك ، فإن

أقتل ، أنا ، أبداً ...

فابتسم فيليب بحزنٍ دون أن يعارضه . إنه يعرف جيداً ما تفعل

قوة القطيع التي لا ترحم في النفوس العاصية ، وفي إرادتها ...



ورجع أذار ، ورجعت معه الأيام الطويلة ، وأولى أناشيد
 المصافيير الطروبة المغردة . ولكن لهيب الحرب المشؤوم كان
 يزداد اتساعاً أيضاً يوماً بعد يوم ، والجوّ محموماً في انتظار الربيع ،
 وفي انتظار الكارثة ... وكنت تسمع ذلك الهدير الشيطاني يعلو
 ويزداد ضخامة وشدة ، وأسلحة ملايين الأعداء تتلاحم ، هؤلاء
 الأعداء المبعثرين منذ شهور وراء حواجز خنادقهم ، على أهبة أن
 يطفروا من ورائها في كل لحظة مثل موج البحر الزاخر ليجتاحوا
 كل مايلقون في طريقهم .. وكان ظل الأصوات الرهيبة يسبق
 الوباء فكأنه يعلن عنه ، فتتردد إشاعات خيالية وهمية عن غازات
 سامة ، وزعاف منتشر في الجو الفسيح ، ستمهارة كما يقال على

أرجاء البلاد طويلاً وعرضاً لتدمر كل شيء وتفنيه مثل حمهم
جبل بيله الخانقة^(١) . وأخيراً ، فقد كانت زبارات الغوتين ، المتقاربة
أكثر فأكثر ، نحبي بحذق ومعرفة عظيمين عصبية باريس
وحالة التوتر فيها .

واستمر بير ولوس يرفضون أن يعرفا شيئاً مما يحفُّ بهما .
ولكن تلك الحمى الخفيفة التي يتنفسانها ، دون درابتهما ، في
الهواء الثقيل المفعم بالوعيد والأخطار ، كانت تسعر الشهوة
المحسونة في جسميهما الغضيين الرقيقين وتوجب أوارها . إن
ثلاث سنوات من الحرب قد نشرت في نفوس أوروبا حرية أخلاقية
تنفذ حتى أكثرها طهارة وعفة وبراءة . أضف إلى ذلك
أن كلا الطفلين كانا بعيدين عن كل إيمان ديني يحميها من رذائل
الحياة ، وإن كانت رقة قلبيهما ، وعفافهما الغريزي ، يصونانها
ويلقيان عليهما ستاراً وافيّاً . ولكنهما قد قررا سرّاً ، على أية حال ،
أن يعطي كل منهما نفسه للآخر قبل أن تفصل فيما بينهما وحشية

(١) أكبر براكين بحر الأدرياتيك ، ثار في القرن الرابع عشر فأفنى مدينة
القديس بطرس التي يشرف عليها .

البشر العمياء وقسوتهم الساحقة . ولم يعرفا بعضهما على ذلك من قبل ، فأعلنا عنه في تلك الأمسية ..

كانت والدة لوس تضطر للتغيب عن الدار مرة أو مرتين في الأسبوع عندما يحتجزها عمل المصنع ليلاً . وفي مثل تلك الأحوال كانت لوس ترقد عند صديقة لها في باريس ، كي لا تقضي الليل وحيدة في ذلك الحي الفقير النائي . ولم يك ثمة من يراقبها بحيث كان العاشقان يكتسبان هذه الحرية كي يقضيا معاً جزءاً من الليل ، ويتناولوا في بعض الأحيان عشاء متواضعاً في أحد المطاعم . وفي ذلك المساء من منتصف آذار ، بينما هما خارجان من المطعم ، دوت صفارة الانذار ، فأسرعا يحتميان في أقرب ملجأ ، كن يفرّ من وجه مطر غزير منهمر ، ويتسليان فترة من الزمن بمراقبة الرفاق الذين جمعتهما الصدفة بهم . وإذ خيل إليهما أن الخطر بعيد أو قد أضحى بعيداً ، انفلتا من الملجأ ، دون انتظار الاعلان عن زوال الخطر ، وتابعا الطريق وهما يثرثران في مرح وسرور ، وفي عزمهما ألا يتأخرا في العودة إلى الدار تلك المشية ... كانا يسلكان طريقاً قديمة ضيقة قرب سان سوليس ، وقد تخطيا لنوهما عربة تقف قرب بوابة

كبيرة ، استسلم سائقها وحصانها جميعاً لنوم عميق .. وعندما
أصبحا على بعد عشرين خطوة منها ، على الرصيف الآخر ، إذ
بكل شيء يرتجف حولهما ، ووميض أحمر يخطف الأبصار بماؤ
الشارع بفتة ، وضوضاء عنيفة كهزيم الرعد الغاضب تجتاح الحي
بأسره ، ورذاذ غزير من حجارة منتزعة وزجاج محطم يهطل من
السماء مدراراً . وأسرعاً يلتصقان بجدار أحد المنازل التي تشكل
منعطفاً مباغتاً في الدرب ، وقد تعانق جسدهما ، فشاهدا - في
لمعان البرق - عيونهما الطافحة حباً ورعباً . وكان صوت لوس
يترجى ، في الليل الذي أرخى سدوله من جديد :

— كلا ! لأريد ذلك بعداً ..

وأحسَّ بيير على شفقيه الشفتين الشفوفين والأسنان الملتهبة ...
وظلا هكذا مرتجفين مرتعشين ، في دكنة الطريق ، وعلى بعد
خطوات منها ، بين أنقاض العربية المحطمة ، رجال خرجوا من
المنازل المجاورة يرفعون جثة السائق القليل ومروا بجوارهما ، والدم
يسيل قطرة قطرة من جسد البائس الذي يحملون ... وظلَّ بيير
ولوس متصلبين من هول المشهد ، متعانقين بشدة وعنف ، حتى
هُددهما ، عندما عاد الشعور إليهما ، أن جسديهما عاريان تحت

وطأة العناق . وحلاً رفاق أيديهما وشفاهما المتلاحمة التي تجرع ، مثل
الجزور المغروسة في التربة ، السكّان المعشوق . وشرع كلاهما يرتعشان .

قالت لوس ، وقد سيطر عليها ذعر عظيم :

— لنرجع إلى الورداء !

وجرّته ...

— لوس ، إنك لن تدعيني أرحل عن هذه الحياة قبل ... ؟

فقالت لوس ، وهي تشدّ على ذراعه :

— أواه ! يا إلهي ! إن تلك الفكرة لأسوأ من الموت !

وقالا في وقت واحد ، يخاطب كل منهما الآخر :

— يا حبي !

وتوقفا عن المسير من جديد ...

قال بيير :

— متى أكون لك ؟

(ما كان يجرؤ على السؤال : « متى تكونين لي ؟ »)

وفطنت لوس إلى ذلك ، فقالت متأثرة :

— يا معبودي .. عما قريب ! لانستعجلنا ! ليس في إمكانك

أن تريد ذلك أكثر مما أريده أنا ! . فلنبق هكذا أيضاً فترة

أخرى... ذلك رائع وجميل...! هذا الشهر أيضاً ، حتى نهايته .

قال :

— حتى الفصح ؟

(كان الفصح ، ذلك العام ، يقع في اليوم الأخير من آذار) .

— بلى ، قيامة .

فقال :

— أواه ! إن الموت يسبق القيامة .

فقالت ، وهي تختم فيه بفمها :

— صه !

وتلصصا من بعضهما ...

قال بيير :

— هذا المساء ، إنها خطوبتنا .

وكانا يبكيان حنايآ ، وهما يسيران في الظل بهدوء ، معتمدين على بعضهما البعض . وكانت الأرض ، تحت أقدامهما ، تصرّ بالزجاج المحطم ، وبلاط الشارع يدي . وفيما حول جبهما ، كان يربض الليل والموت جميعاً ؛ ولكن فيما فوق رأسيهما ، إلى الأعلى من كوة الجدارين الأسودين المعانقين الدرب الضيق ،

مثل دائرة سحرية ، أو مدخنة جبارة ، في لبّ السماء ، كان
قلب نجمةٍ يحقق ...

ثم ها إن أصوات الأجراس تغي ، والأَنْوار تسطع من
جديد وتلألأ ، والطرق تدبُّ الحياة فيها مرة أخرى ! إن
الهواء حر من الأعداء ، وباريس تتنفس ، والموت قد هرب !..

* * *

وهذه عشية أحد الشمانين .. إنها يلتقيان كل يوم طوال ساعات عديدة ، ولا يسعيان إلى الاختفاء عن أعين الناس ، إذ ليس من حساب يقدمانه إلى هذا العالم الذي لا يرتبطان به إلا بخيوط رقيقة جداً على أهبة الانفصام في كل حين ! قبل يومين فقط بدأ المهجوم الألماني الكبير ، وراحت موجته العاتية تحتاج كل شيء على مسافة مائة من الكيلومترات عرضاً ، والمدينة ترتعش أهدأ بانفعالات مستمرة ، من انفجارات مستودعات كورنوف التي هزت باريس بأسرها هزاً عنيفاً ، فكأنها زلزال أرضي ، إلى إنذارات الخطر المتلاحقة التي تحطم النوم وترهق الأعصاب ... وفي صباح يوم السبت ذاك ، بعد ليلة مضطربة ، أفاق جميع

الذين لم يفضوا العين إلا في ساعة متأخرة جداً ، على زجاجة
المدفع الخفي الجاثم في البعد يطلق الموت متحمساً ، من وراء
نهر السوم ، وكأنه رابض في كوكب آخر يبعث منه المنية
على الأرض . ولقد أسرع الناس ، بعد الطلقات الأولى التي
عزوها إلى الغوتين ، فاختبأوا صاغرين مستسلمين في الملاجئ
والخافي . ولكن خطراً يدوم طويلاً لا يلبث أن يصبح عادة
تألفها الحياة ، بل لا تبعد عن اكتشاف بعض الجاذبية فيها
مادام الخطر مشتركاً بين الجميع ، وليس كبيراً بالاضافة حتى
درجة بعيدة . زد على ذلك أن الطقس بديع للغاية ذلك
النهار ، ومما يرثى له حقاً أن يدفن المرء نفسه حياً بينما يدعو
كل شيء إلى التمتع بالحياة والاعتراف منها . وهكذا انفلت
سائر الناس خارج الدور قبل أن تحين الظهيرة ، ولم تلبث
الطرقات والحدائق وشرفات المقاهي أن غصت بهم ، في تلك
الأمسية الرائعة البهيجة ، فكان اليوم يوم عيد عظيم ...

وتلك كانت الأمسية التي اختارها بير ولوس كي يهربا بعيداً
عن ضوضاء البشر ، إلى غابة شافيل الجميلة الفاتنة . إنهما
بعيشان ، منذ عشرة أيام ، في مسكنة مهللة جـذالة ، وفي

القلب يخيم سلام عميق ، وفي الأعصاب تسري رجفة عنيفة ،
يخيل إليهما أنهما بر كبان موجاً متدفقاً طحوماً يحفُّ به تيار
شديد الهياج فيحملهما دوار البصر والسمع ويدور بهما في قوة
وشدة عظيمتين . ولكن ، إذا ما هما أسبلا الأجفان ، وسدا
الأذان بالأيدي ، وأرتجا الباب بالزللاج ، في أعماق النفس
يحلُّ إذن السكون ، السكون الذي يبهز الأبصار ، ومعه
نهار الصيف الجامد الذي لا حراك به ، حيث الفرح غير المنظور ،
المندفق كالجدول رقيقاً رطباً نشيطاً ، يغني أنشودته مثل عصفور
مخبيء عن العيون ... إيه أيها الفرح ، أيها المغني السحري ،
يا زقزة السعادة ! أنا أعرف جيداً أنه يكفي ، كي يعود زبد التيار
وضوضاؤه إلى الدخول ، أن أبعد ما بين أجفاني قليلاً ، أو أن
أرفع الإصبع هنيهة قصيرة عن أذني المغلقة ... باللسد الهزيل
السريع العطب ! ومن معرفتي هزاله الشديد يفوح الفرح أيضاً ،
هذا الفرح الذي أعرفه مهدداً في كل لحظة . وعندئذ فان
السلام والسكون نفسيهما يتخذان حياءً ملتهباً مستعمر الأوار ...
وإذ بلغا الغاية أمسكا بيدي بعضهما بعض . إن الأيام الأولى
من الربيع لا تشبه بخمرة جديدة تساق الجسد حتى تبلغ الرأس

فندور به ، والشمس الفتية تسكر بعصير كرمها الكليّة النقاوة
والطهر . وكان النور يرفرف فوق الأشجار المجردة عن الأوراق
بعد ، وعين السماء الزرقاء ، من خلال الأغصان العريانة ، تسحر
العقل وتلقيه في سبات عميق .. ولم يتبادلا عدة كلمات إلا
بصعوبة جمة ، فاللسان يأبى أن يتابع الجملة التي بدأها . وكانت
أرجلها رخوة متعبة لانسير إلا مكرهة مضطرة ، فيروحان
يترنحان ذات اليمين وذات اليسار تحت شمس الغابة وسكونها .
وكانت الأرض تجذبهما إليها لو يرقدان على الدرب ، لو يستسلمان
إلى قشاط دولاب العوالم الكبير يحرفهما معه !..

وتسلقا منحدر الطريق ، ودخلا دغلاً كثيف الأشجار ،
ثم تمعدا ، جنباً إلى جنب ، على الأوراق الميتة البارزة من
خلالها رؤوس أزهار البنفسج المتفتحة . كانت أناشيد العصافير
الأولى ، وهدير المدفع البعيد ، تمزج مع أجراس القرية
المعلنة عن عيد الفداء ، والهواء النير يهتز بالرجاء ، والايمان ،
والحبة ، والموت ... وراحا يتكلمان في صوت مخفوض ، رغم
السكون والوحدة المحيطين بهما ، فقد كان قلباهما مرهقين ...
بالسعادة ؟ أم بالآلم ؟ إنهما لا يدریان على وجه التحقيق . وكانا

غارقين في الحلم ، فلوس تحس ، وهي مضطجعة لآحراك بها ،
ممتدة الذراعين على طول جسدها ، مفتوحة العينين ، مستغرقة
البصر ، تصرو إلى السماء في ثبات وشفف ، تحس عذاباً خفياً
يجتاحها أكثر فأكثر ، وهي تسعى عبثاً منذ الصباح في تطارده
عنها وتبعده حتى لا يعمرك فرحة ذلك النهار وغبطته . وأسند
بيير رأسه إلى ركبتي لوس ، في حجر ثوبها ، مثل طفل ينام
ووجهه ملتصق بشف البطون وحرارته ... وكانت لوس ، تداعب
بيديها ، دون أن تتكلم ، أذني الحبيب ، وعينييه ، وأنفه ؛ وشفتيه ..
إليه أيتها اليدان الروحيتان الحاملتان ، في أطراف الأصابع ،
أفواها صغيرة كما في قصص الجنيات ! وكان بيير ، مثل مفاتيح بيان
ذكي ، يخمن العواطف المارة في نفس الصديقة من تلك الموجات
اللطيفة الراكضة تحت الأصابع . وسمعها تنهد ، قبل أن تنهد فعلاً .
وبغنة ، نهضت لوس بجسدها ، ومالت بكل قائمتها إلى الأمام بشدة ،
وزبحرت بصوت خفيض ، مبهورة الأنفاس :

— أو اه ، يا بيير !

فأخذ بيير بصيحتها المفاجئة ، وراح يتطلع إليها شدهوفاً ..
— أو اه ، يا بيير ! من نحن ؟ .. وماذا يريدون منا ؟ .. وماذا

نريد ؟... ماذا يجري في داخلنا ؟.. هذا المدفع ، هذه العصافير ،
هذه الحرب ، هذا الحب ... هاتان اليدان ، هذا الجسد ، هاتان
العينان ... أين أنا الآن ؟... وما كينونتي ؟...

وأراد بير ، وهو لا يعرف منها هذا التعبير من الشرود ،
أن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنها دفعته عنها وهي تقول :
— لا ! لا !

وأخفت وجهها بيديها ، ثم غمرت الوجه واليدين جميعاً في
العشب . وراح بير ، مضطرباً قلقاً ، يتوسل إليها :
— لوس !

واقترب برأسه من رأسها ..
عاد يقول ، بعد برهة :
— لوس ! ما بالك ؟... أناقة علي ؟...
فرفعت رأسها ، وقالت :
— كلا !

ورأى دموعاً تترقق في عينيها ...

— أنت حزينة ؟

— نعم .

— لم ؟

— لأدري .

— قولي لي ...

فقلت :

— آه ، إني أخجل من ذلك ..

— تخجلين مم ؟

— بن كل شيء .

وسكنت ...

كانت رؤيا كئيبة ، مرهقة ، كثيرة الإذلال ، تعذبها منذ الصباح الباكر ... إن والدتها ، وقد لعبت برأسها تلك السموم المخمرة في خليط العار والاجرام في المصانع ، هذه الدنان البشرية ، لم تعد تحفظ رصانتها المعهودة وسلوكها الحسن ، حتى لقد تخاصمت ، في الدار هذا الصباح ، مع عشيقها بدافع الغيرة الثائرة ، دون أن تأبه لوجود ابنتها السامعة سائر أقوالها . وهكذا عرفت لوس من حديثها أن أمها حامل ، فكان ذلك بالنسبة إليها أشبه بطعنة أصابتها في الصميم ، نال الحب رشاش من عارها ، بما فيه حبها لبيير أيضاً . وذلك كان السبب في عراضها

عن بيير عندما اقرب منها . كانت خجلى من نفسها ومنه ..
خجلى منه ؟ يا لبيير المسكين !

ولقد بقي بيير هناك ، ذليلاً ، لايجرؤ على الحركة . ولكن ،
مأسرع ما اجتاحها الندم على ما بدر منها ، فلم تلبث أن ابتسمت
من خلال دموعها . وقالت ، وهي تلقي برأسها على ركبتيه :
— لقد حان دوري !

وكان بيير ، قلقاً بعمد ، يضغط على شعرها ، مثلما يسمح المرء
على رأس قطعة أليفة . وتتم :

— لوس ، ماذا ألم بك ؟ أخبرني !
فأجابت :

— لاشي . لقد شاهدت أشياء مخزنة ..

كان يضمن كثيراً من الاحترام لأسرارها حتى يصر على أسئلته .
ولكن لوس تابعت ، بعد لحظة :

— آه ! إن هنالك لحظات ... ينجل المرء فيها من كونه إنساناً .
فانتفض بيير ...

قال :

— بلى .

وبعد برهه صمت ، تابع في صوت خفيض وهو يعيل نحوها :

— عفواً !

فهبت لوس واقفة في إصصارٍ عنيف ، وارتمت على عنق

بيير ، ورددت :

— عفواً !

وتماسك فوهاهما ...

كان الطفلان في حاجة لتبادل العزاء ، وكانا يفكران ،
دون أن يعلننا بصوتٍ مرتفع عما يجول في خاطرها :

— من حسن الحظ أنني سأموت ... فأكثر الأشياء بؤساً
صيرورتي واحداً من هؤلاء البشر الذين يفخرون كل الفخر بكونهم
بشرّاً ، وبكونهم يدمرون كل شيء ، ويدنسونه ...

كان كل منهما يغمس أنظاره في عيني الآخر ، والشفاه منهما
تلاص الشفاه ، والأهداب تمس الأهداب ، مبتسمين في شفقة
حنون . ولم يكونا يتعبان من هذا الاحساس الألهي الذي هو
أكثر أشكال الحب طهارة وصفاء . وأخيراً انتزعا نفسيهما من
التأمل الغارقين فيه ، فصاحت عينا لوس من جديد ، وقد انقشع

السحاب عنهما ، عذوبة السماء والأشجار المبعوثة إلى الحياة ،
ونفحة الورد الذكية ...

قالت :

— ما أحلى ذلك !

كانت تفكر :

— لم الأشياء جميلة هكذا ؛ ونحن على كل هذه الحقايرة ،
والغباء ، والقبح ... (لو لم تكن أنت ، يا حبي ، لو لم تكن أنت ! ...)
وتطلعت إلى بيب من جديد :

— حقاً ! ماذا يهمني من الآخرين ؟

ولم تلبث ، في عبث الحب الرائع ، أن انفجرت ضاحكة ،
وهبت على قدميها بقفزة واحدة ، وأسرعت تعدو عبر الغابة
وهي تصيح :

— أمسك بي .

واستمررا يلعبان ، مثل طفلين صغيرين ، بقية النهار ... وعندما
أنهكها التعب ، رجعا بخطى قصيرة نحو الوادي المقعم ، مثل
سلّ كبير ، ببراغم الشمس الغاربة . وكان يبدو لهما غريباً
جديداً مستحدثاً كل ما يتذوقان بقلب واحد لسكبيهما ، وبجسدين
لقلب واحد ...

التقوا عند أحدهم ، خمسة أصدقاء من جيل واحد ، خمسة من رفاق الدراسة جمع بينهم ، في عزلة تامة عن الآخرين ، بعض الانسجام في الروح ، وعزم مبدئي على الانتقاء في الأفكار ؛ وإن لم يكن في عدادهم ، بالرغم من ذلك ، اثنان يفكران نفس التفكير . فتحت الاجماع الذي يدعون وجوده بين أربعين مليوناً من الفرنسيين ... أربعون مليوناً من الأذمغة تعمل في وحدة وفراق عن بعضها البعض ، كل في بيته الخاص . إن فكر فرنسا لا شبه ما يكون بأرضها ، بلد الملكيات الصغيرة . وكان الأصدقاء الخمسة ، من قطعة أرض إلى الأخرى ، يحاولون أن يتبادلوا آراءهم من فوق الأسوار والسياج ، فلا يفعلون

بذلك إلا أن يؤد كل منهم ، لنفسه ، أفكاره الخاصة بصورة
أكثر حتمية وإطلاقاً من ذي قبل . ولكنهم كانوا جميعاً ،
على أية حال ، من ذوي الأفكار الحرة ، وهم إن لم يكونوا
جميعاً جمهوريين ، فجميعهم أعداء الرجعية الفكرية أو الاجتماعية ،
أعداء العودة إلى الوراء .

كان جاك سيمون أكثرهم حماسة للحرب وتأيداً . هذا اليهودي
الكريم النفس قد اقترن بسائر أهواء فرنسا الفكرية ، مثله في ذلك
مثل أبناء عمه الاسرائيليين الذين يقترون ، في أوروبا بأسرها ،
بقضية الوطن الذي تبشأهم وأفكاره . لا بل كانوا يعملون أيضاً إلى
المبالغة في ذلك ، كما هي عادتهم في كل ما يتبعون . كان ذلك
الفتى الجميل ، ذو الصوت المتنهب الجمهوري ، والنظرة المتأججة
الثقيلة قليلاً ، والملامح المنتظمة ، فكان إطاراً واضح الحدود
يحيط بها ، أكثر تأكيدياً في معتقداته مما يلزم ، وبالإضافة إلى
ذلك عنيداً جداً في الخلاف والمعارضة . كان يرى أن واجب
الديمقراطيات أن تقوم بصليبية واسعة النطاق في سبيل خلاص
الشعوب وقتل الحرب . إن أربع سنوات من الذبح في سبيل
محبة الانسانية لم تقنعه بعث إيمانه . . كان واحداً من أولئك

الذين لا يقبلون قط بتكذيب الوقائع لهم ، ففي صميم قلبه
كبرياء مضاعف ، كبرياء الجنس الذي يريد أن يرد إليه اعتباره
المفقود ، وكبرياء الشخصية التي تريد أن تكون على صواب
وحق دوماً . وكانت تلك الإرادة تنضاعف وتزداد بمقدار مانتقص
ثقله وتنضاعف ، فتألمته المخلصة ليست في الواقع إلا ستاراً يقنع
غرائز قاهرة مضى عليها زمن طويل وهي مكبوتة مخنوقة ،
ستاراً يقنع حاجة ملحة إلى العمل والمغامرة ، حاجة لم تك بأقل
إخلاصاً على أية حال ..

ولقد كان أنطوان نوديه ، بدوره ، متشيعاً للحرب ، يدفعه
إلى ذلك عجزه عن أن يفعل شيئاً آخر . إن هذا الفتى البورجوازي
الضخم الجثة ، المضرج الوجنتين ، الرقيق الشمل والأخلاق ،
القصير النفس ، الذي يدرج الراء بلطافة أهالي مقاطعات
الوسط ، ليتأمل بابتسامة هادئة حماسة الصديق سبه البليغة ،
أو أنه يدفع به ، عندما تمنح الفرصة ، بكلمة مهمة يلقبها في
لامبالاة تامة ، كي يتسلق حتى القمة ، دون أن يسعى - هو
الكسول - إلى اللحاق به .. ماجدوى الحمية مع الأمور
التي لا تتعلق بنا أو ضدها ؟ نحن لا نلقى نزاع الواجب والهوى ، هذا

النزاع البطولي والثرثار معاً ، إلا في المآسي التمثيلية وحدها . وعندما لا يجد المرء سبيلاً إلى الاختيار ، فإنه يقوم إذن بواجبه دون كلام فارغ ، وهذا الواجب ليس بأقل بهجة على أية حال ! لم يكن نوديه يعجب ، ولا كان يعاتب أو يلوم ... لقد كان الحسن السليم يحدثه أن القطار إذا انطلق مرة ، وتحركت الحرب ، فلا بدّ من الدوران معها إذن ... ليس من سبيل آخر على الإطلاق . أما التنقيب عن المسؤوليات ، فذلك عبث ومضيعة للوقت ليس غير .. عندما اضطر إلى القتل ، فلا بدّ أن أتهر إذا عرفت أنه كان باستطاعتي ألا أقاتل لو أن الأمور كانت ... مألست هي عليه !

المسؤوليات ! لها ، بالنسبة إلى برنار مينيه ، القضية الرئيسية . إنه يحاول ، في عناد ، أن يحلّ هذه العقدة من الأفاعي ، أو أنه بالأحرى بلوح بتلك الأفاعي فوق رأسه مثل إحدى آلهة الجحيم ! هذا الصبي الناجل ، الذكي ، الملهب ، الكثير العصبية ، المحترق بحساسية دماغية متأججة السعير ، إن البورجوازية المثرية ، وسليل عائلة جمهورية عريقة ساهمت في تحمل أعباء أكثر سلطات الدولة رفماً وأهمية ، هذا الصبي يبشر ، كرد فعل لذلك كله ، بأهواء فوق ثورية . لقد شاهد ، عن قرب ، سادة

اليوم وعقبايلهم ، فهو يشهم سائر الحكومات ويجرّمها ، وحكومته
بصورة خاصة ، ولا يتحدث إلا عن النقيابين والبلاشفة ...
لقد اكتشفهم حديثاً ، فراح يتآخى معهم كأنه على صلة بهم
منذ طفولته . لم يكن يجد الدواء إلا في انقلاب شامل للمجتمع
بأسره ، دون أن يستطيع تعيين نوع ذلك الانقلاب وماهيته
لأنه يكره الحرب ، ولكنه على استعداد لأن يضحي بنفسه ،
مقبطاً ، في حرب تقوم بين الطبقات ... حرب ضد طبقته ،
حرب ضده ، هو نفسه ..

وكان كلود بوجه ، رابع الجماعة ، يشاهد هذا البراز السكلامي
باتباه بارد فيه شيء من الازدراء . كان هذا الفتى المدم ، وهو
سليل بورجوازية مغرقة في الصغر ، انتزع من مقاطعته من قبل
مفتش معارف لاحظ ذكاه أثناء إحدى جولاته التفقيشية ، وحرّم
في وقت مبكر جداً من حياة العائلة الأليفة ليرتقي في أحضان
العاصمة مبعوثاً يتلقى العلم مجاناً ، كان هذا الفتى قد اعتاد ألا
يعتمد إلا على نفسه ، وألا يعيش إلا مع نفسه ، فهو الآن
أيضاً لا يحيا إلا من ذاته وفي سبيل ذاته ... لم يكن ، وهو
الفيلسوف الانساني ، المهتم في تحاليل النفس ، الغارق بلذة

وغبطة عظيمتين في تفحص باطنه مثل قطعة منكورة في طابة
كبيرة ، لينأثر بانفعالات الآخرين أو يبنى باهتماماتهم . وهؤلاء
الأصدقاء الثلاثة الذين لا يتوصلون إلى التفاهم فيما بينهم ، كان
بضعهم في كيس واحد... مع « الرعاع » . أفلا يحيط ثلاثتهم
من قيمة أنفسهم عندما يريدون أن يقاسموا الجماهير عواطفها ؟
وفي الحقيقة إن الجماهير تختلف بالنسبة إلى كل واحد منهم .
ولكن الجماهير ، مهما تكن ، مخطئة دوماً وعلى ضلال بالنسبة
إليه ، هو بوجه ... إن الجماهير هي المدو الدود ... يذغي على
الفكر أن يظل وحيداً ، وأن يتبع قوانينه فقط ، ويؤسس -
في عزلة عن العامة وعن الدولة - مملكة الفكر الصغيرة المغاظة .
أما بدير فكان ينظر ، وهو جالس قرب النافذة ، إلى الفضاء
في شرود ... ويحلم . كان ينخرط عادة ، بحماسة ، في تلك الحملات
الفنية ، أما الآن فهي عنده دوي كلمات عديمة الجدوى بصفي
إليها من بعيد ، من بعيد جداً ، في خمول وخدر ضجرين ساخرين .
ولم ينتبه الآخرين ، المستغرقون في مناقشاتهم الحامية ، إلى
سكوته إلا بعد فترة طويلة . وأخيراً التفت إليه سديسه ، وقد
اعتاد أن يجد فيه دوماً صدى لبلشفيته اللفظية ، وناداه بعد أن

دهش من إعراضه عن الأدلاء برأيه .

فانتفض بغير ، وقد أوقف بغنة من حلمه ، وتضرج وجهه ،
ثم ابتسم وقال :

— عمّ تتحدثون ؟

فشمل الاستياء الجميع على حد سواء ...

— ولكن ، أفلم تسمع شيئاً أبداً ؟

وسأله نوديه :

— فيم كنت تفكر إذن ؟

فأجاب بغير ، في شيء قليل من الاضطراب ، وشيء قليل
من المجون :

— في الربيع ! لقد رجع دون إذن منكم ، ولسوف يذهب
دوننا أيضاً ...

وسخمه الجميع باحتقارهم وازدراؤهم . نعته نوديه « بالشاعر » ،
أما جاك سه فوصفه « بالمدعي » .

وكان بوجه الوحيد الذي راح يزرقه في شيء من الفضول
والسخرية بعينه المحدثين البارديين الخدقين . قال :

— أينها النملة الطائرة !

فقال بيير ، مسروراً :

— ماذا ؟

وقال بوجه :

— ألا فاحذر جناحيك . إنه الطيران العربي ، وهو لا بدوم

إلا ساعة فقط ..

فأجاب بيير :

— إن الحياة لا تدوم أكثر ...

* * *

في ذلك الأسبوع من الآلام ، كانا بلتقيان يومياً ... يسعى
 بيهر إليها في دارها المنعزلة حيث تستيقظ الحديقة الصغيرة ،
 فيقضيان فيها جل الوقت بعد الظهيرة . إنها لينفران الآن من
 باريس ، من الناس ، من الحياة ، لا بل إن شللاً أخلاقياً
 يجتاحهما في بعض الأحيان ، فيطبق عليهما سكون شامل ،
 يظلان أثناءه جامدين لا حراك بهما ، إلى جانب بعضهما البعض ، دونما
 أدنى رغبة في الحركة أو الكلام . إن إحساساً غريباً يغذيها معاً ،
 وخوفاً عظيماً يملكها ... خوفاً يتفاقم بمقدار ما يقترب ذلك اليوم
 الذي سيهبان فيه نفسيهما كل الآخر ... خوفاً بفرط المحبة ،
 بعملية تنقية للنفس التي ترهبها بشاعات الحياة وقسوتها وعارها ،

والتي تروح تحلم ، في سكرة من الهوى والكآبه ، بالخلاص
والافلات مما يرهبا . ولم يكونا يتحدثان عن ذلك أبداً ...
كان جل وقتها ينقضي في ثرثرة عذبة عن مسكنهما المقبل ،
وعن عملهما المشترك ، وعن عش الزوجية الصغير الذي سيعمرانه .
كانا يرتبان سلفاً حتى أدق تفاصيل إقامتهما ، ويعنيان بتعيين مكان
الاثاث وموضع الأوراق ومحل كل شيء آخر . وكانت لوس ،
مثل امرأة حقيقية ناضجة ، تتأثر من هذه التخيلات ، هذه الصور
المائلية عن الحياة اليومية ، حتى درجة البكاء ! كانا يتذوقان منذ
الآن الأفراح اللذيذة اللطيفة التي سيجعلها إليهما العش المقبل ...
وكانا يعرفان أن شيئاً من كل ذلك لن يكون .. يبير باحساس
من التشاؤم الطبيعي فيه ... ولوس بإدراك نير حنون يدري
استحالة الزواج العملية ... ولذا كانا يعجلان في تذوقه ، في
الحلم على الأقل ... وكان كل يخفي عن الآخر يقينه بأن ذلك
ليس إلا مجرد أضغاث أحلام فقط ، وهو يعتقد أنه يملك السر
وحده ، فيسهر ، حنوناً ، على أوهام الآخر الجميلة .
وإذا ما استنفدا لذات المستقبل المستحيل المؤلمة ، أخذهما
الاعياء ، فكأنهما قد عاشاه حقاً وفعلأ ... وعندئذ كانا

يستريحان ، جلوساً تحت العرائش اليابسة التي تذيب الشمس
نفسها المتجمد ، ويروحان يصيخان ، ورأس بيير مستند إلى
كتف لوس ، إلى دوي الأرض وهما يحلمان .. إن شمس آذار
الفتية تلعب من وراء السحب الرا كضة عبر السماء ، تضحك
تارة وتواري تارة ، فتعدو على سطح الأرض إما أشعة نيرة
حيناً ، وإما ظلال قائمة حيناً آخر ، مثلما يعدو في النفس الفرح
والآلم واحداً تلو الآخر .

وقال بيير ، على حين غرة :

— لوس ! أفلمت تذكرين ؟ .. لقد مضى على ذلك زمن طويل ،
طويل جداً ... وفيما سبق ، لقد كنا هكذا ...
فقالت لوس :

— بلى ، ذلك صحيح كل شيء ، إني أعرف على كل شيء ...
ولكن أين كنا إذن ؟

ويروحان يتسليان في البحث عن الأشكال التي تعرفا على
بعضها بعض بها . أكانا إنسانين في ذلك الحين ؟ ربما ! ولكن
بيير أن الفتاة يومذاك بكل تأكيد ، ولوس كانت العاشق
الولهان .. أكانا عصفورين في الفضاء ؟ عندما كانت طفلة بعد ،

كانت أم لوس تقول لها إنها أوزة صغيرة متوحشة سقطت من
من المدخنة ... آه ! لقد كسرت جناحيها فقط من جراء ذلك
السقوط ! ولشد ما كانا يدهجان ، بصورة خاصة ، بأن يلقيا
نفسيهما في الأشكال السائلة البريئة التي تتداخل ، وتمازج ،
وتسيل مثل لواب الحلم ، أو حلقات الدخان المتصاعد بالأحرى ..
سحباً بيضاً تذبذب في بعضها البعض في هاوية السماء ، أو أمواجاً
صغيرة تمرح غيثاً على الأرض ، أو ندى على العشب ، أو حبات
هندباء تسبح مع تيار الهواء ... ولكن الهواء يجرفها . لو أنه لا يهب
من جديد فقط ، ولا نضيع نحن عن بعضنا بعض حتى الأبد !
ولكنه قال :

— أنا أعتقد أننا لم نفترق قط . لقد كنا سوية ، مثلما نحن
الآن ، متمددين بجانب بعضنا البعض . ولكننا كنا نرقد فقط ،
وكنا نحلم . ومن حين لآخر نستيقظ . لانكاد نفعل ذلك بالأحرى .
فأحس أنفاسك ، وأحس خذك منضجاً بخدي وبذل جهداً كبيراً حتى
يتقارب فرعانا ... ثم نعود فندمفرق في سبائنا .. حبيبتي ، يا حبيبتني ،
إني ههنا ، إني أمسك بيدك ، فلا تفلتيني ! الآن ، إنها ليست
الساعة تماماً بعد ، فالربيع يكاد ألا يرينا طرف أنفه المتجمد ...

فقالت لوس :

— مثل أنفك ...

— عما قريب ، سوف نستيقظ في يوم صائف بديع .

فقالت لوس :

— سوف تكون اليوم الصائف البديع ...

— ... وظل الزيزفون الدافي ، والشمس بين الأغصان ،

والنحل الذي يعني ...

— ... وشجرة الخوخ المعرّشة على الجدار ، ولحما المعطر ...

— ... وقيلولة الحاصدين ، وسنا بلهم المذهبة ...

— ... والقطعان الكسولة التي تجترّ حقلها ...

— ... والمساء ، عند الغروب ، مثل مستنقع مزدهر ،

والنور المائل الذي يمدو ، فوق الحقول الجرداء ..

وقالت لوس :

— سوف نكون كل شيء ، كل ما سيكون عذبا كي نراه وكي

نملكه ، كي نقبله وكي نأكله ، كي نلمسه وكي نتنفسه ...

وأضافت ، وهي تشير إلى المدينة ودخانها :

— أما الباقي ، فانتا تتركه لهم .

وضحكت ، ثم قالت وهي تقبل صديقها :
— لقد أشدنا حسنا أغنيتمنا المزدوجة ، أليس كذلك
يا صديق بيرو ؟

فقال :

— بلى ، يا جيسكا .

فمادت تقول :

— يا عزيزي بيرو المسكين ، إننا لم نُجعل من أجل هذا العالم
حيث لا يعرف الناس أن ينشدوا جيداً غير المارسييليز !
فقال بيير :

— لو أنهم يعرفون كيف ينشدونها أيضاً !

— لقد أخطأنا المحطة ، فهبطنا باكراً جداً .

فقال بيير :

— إنني أخاف أن تكون المحطة التالية أسوأ أيضاً . أفلمست
تصورين حالنا ، يا حبيبتي ، في المجتمع المقبل ، في الخلية التي
يمدوننا بها ، حيث لا يحق لأي كان أن يعيش إلا في سبيل
النحلة الملكية ، أو في سبيل الجمهورية ؟

فقالت لوس :

- أن نديض منذ الصباح حتى المساء ، مثل بندقية رشاشة ،
أو منذ الصباح حتى المساء نلجس بيوض الآخرين ... شكرًا
من أجل حق الاختيار !
فقال سير ضاحكاً :

- آه ، يالوس ، أيتها الخبيثة الصغيرة ، ما أبشع أملوبك
في الكلام !

- لي ، إن ذلك شرّ عظيم ، أنا أعرف ذلك . إني لأصالح
أشيء ، ولا أنت أيضاً ، يا صديقي . إنك لم تجعل كي تقتل البشر
أو تشوههم في الحرب ، كما إني لم أجعل كي أرفأهم ، مثل تلك
الجياد البائسة التي يعنون بها عندما تنحدر أوطافها في سباق الثيران ،
كي تصلح للصراع المقبل .. نحن كأنان عديما الجدوى ، خطران ،
نلوح بالادعاء السخيف ، المجرم ، إدعاء حقنا في ألا نعيش إلا
لكي نحب أولئك الذين نحب .. عاشقي الصغير ، أصدقائي ،
الناس الطيبين ، الأطفال الصغار ، نور النهار الرائع ، وكذلك
الخبز الأبيض الجيد ، وكل ما هو حسن للذي إذا وضعته بين
أسناني . ذلك نخجل ، ذلك نخجل ! احمر من أجلي ، يا بيرو !
ولكن عقابنا سيكون صارماً ! إن يكون لنا مكان في مصنع

الدولة ، الخيالي من الراحة والشفقة ، الصائرة الأرض إليه
عما قريب .. من حسن الحظ أننا لن نكون هناك عندئذ !
وقال بيير :

— بلى ، يا للمعادة ..

أودعُ ذنبايَ ذاتَ عشيّةٍ وأتركُ روعي بين يديك
وأفرجُ حينَ ألاقِ المنيّةِ وحينَ أذوبُ على شفقتك
— حسنا ، يا عبيدي اللطيف ، ما معنى هذا ؟

فقال بيير :

— ولكن هذه المقطوعة فرنسية صميّة . إنها من رونسار .
أنا لا أريد على الأرض شيئا أودعُ أعيش بدون مَلَأَمٍ
فألمحُ طيفك في ناظريا يظلُّ يغرّدُ مائة عام !
فتهدت لوس ، وهي تقول :

— مائة سنة ! إنه ليس مترمنا !..

ففي الموت بهجة قلبٍ ثرٍ وفيه غناء ، وفيه هناء
يفوق سعادة إسكندرٍ وما كان يملكه من إباء
— أيها الخبيث ، أيها الخبيث ، أيها الصغير العزيز الخبيث ،
أفأنت تحجل ؟ أبطالٌ في هذا الزمن !

فقال بيير :

— إنهم كثرة . إني أفضل أن أكون صديقاً صغيراً يحب ،
شيئاً قليلاً من الرجل .

فقالت لوس ، وهي تمأنقه :

— قليلاً من المرأة ، ما يزال في شفتيه حليب ثديي . يا صغيري !

* * *

Handwritten text in Arabic script, likely a title or introductory passage, though the ink is very faint and difficult to decipher.

إن أحياء تلك الأيام الذين شاهدوا من بعدها انحراف الحظ
 الباهر ، سوف ينسون سراعاً من دون رب تخلق الجناح القاتم ،
 الثقيل ، المتوعد ، الذي غطى في ذلك الأسبوع فرنسا
 الوسطى ولم يوفر باريس بل مستها بظله الكثيف أيضاً . إن
 الفرح لا يأبه كثيراً للانجارب السابقة مهما كانت قاسية صعبة ...
 لقد بلغ الفيض الألماني الأوج بين يوم الاثنين المقدس ويوم
 الأربعاء المقدس ، فاجتاز نهر السوم ، وانتزع مسدن بايوم ،
 ونيمل وغيسكار ، ورواي ، وفوايون ، وألبير ، واستولى على
 إحدى عشرة مائة من المدافع ، وستين ألفاً من الأسرى ... وفي يوم
 الثلاثاء المقدس مات ديمبرسي الرقيق ، رمزاً لأرض النعمة الموطوءة

بالأقدام . إنه القيثارة التي تتحطم ... « أيها اليونان المسكيننة
التي تلفظ النفس الأخير ! ... ماذا سيبقى منه ؟ بعض قطع من
الطين منحوتة ، وبعض أنصاب من الحجارة كاملة الصنع لن
يلبث العشب أن يجتاحها من طريق القبور ، بقايا خالدة من
آئينا المهدامة ...

وكان بير ولوس يشاهدان ، كما لو من أكمة عالية ، الظل
القادم على المدينة ، فينتظران ، وهما مكسوان بعد بأشعة جهما ،
نهاية النهار القصير دون وجل أو رهبة . لسوف يكونان
اثنين ، الآن ، في الليل البهيم ... ومثل ناقوس صلاة المساء ،
كانت الكتابة اللذيذة التي تبعثها ألحان ديبوسي الجميلة ، ديبوسي
الذي أحباه كثيراً ، تصاعد نحوهما تبعثها أوتار الذكرى . إن
الموسيقى تتجاوب مع حاجات قلبيهما أكثر مما فعلته في أي وقت
مضى . كانت الصوت الوحيد الذي يعبر ، وراء ستار الأشكال ،
عن النفس المتحررة من قيودها ...

وفي يوم الخميس المقدس كانا ينطلقان ، ولوس متعلقة بذراع
بير ، ويمير ممسك بيد لوس ، عبر دروب الضاحية ، يفرقهما
الغيث الغزير . وكانت نفحات من الريح تمر فوق السهول المبللة ،

فلا يلاحظان شيئاً من المطر ، أو الريح ، أو قباحة الحقول ،
أو الطريق الموحلة .. وحلسا على حائط حديقة واطى ، انهار
جزء منه حديثاً ، وراحت لوس ، تحت مظلة بيير الذي لا تكاد تحمي
الرأس والكفين إلا بصعوبة جمة ، ترى إلى المياه وهي تنقطر
تباعاً ، وقد تدلى ماقلاها ، وتبثلت يداها وحذاؤها ، وراح رشاش
من القطرات يرسل أصواتاً متداخلة كلما تحركت الأغصان
بنسمة من الريح تهب من إحدى الجهات .. وكانت لوس معتمصة
بالصمت ، باسمة ، هادئة ، متألقة . إن فرحاً عميقاً يفرهما معاً .
قال بيير :

— لم نحب بعضنا بكل هذا المقدار ؟
— آواه ! يا بيير ، إنك لا تحبني كثيراً إن كنت تسأل
السبب في ذلك .
فقال بيير :

— إنني أسألك ذلك حتى أدفعك إلى الاعتراف بما أعرفه
على قدر معرفتك أنت به أيضاً .
فقالت لوس :

— تريد أن أرفع إليك التهاني ، ولكنك مخطئ في ذلك جداً .

فاذا كنت أنت تعرف لماذا أحبك ، فأنا لا أعرف ذلك .

فقال بيير مذعوراً :

— أنت لا تعرفين ذلك ؟

— لا ! (كانت تضحك خفية) . ولست في حاجة أبداً إلى

معرفة أيضاً . ذلك أن المرء عندما يسأل السبب في أمر ما

ليس على يقين تام منه ، فلأن ذلك الأمر ليس حسناً ... وفي

الوقت الراهن ، مادمت أحب ، فليس من حاجة إلى لماذا !

وليس من حاجة إلى من أين ، ومنذ متى ، وكيف ولأن !

إن حبي كائن ، إن حبي كائن ، والباقي موجود إن أَرْضَاهُ ذلك .

وتعانق وجهاهما ، فاكتسب المطر تلك الفرصة كي يتسلل

من تحت المظلة المنحرفة ، ويمسح بأصابعه على شعورهما ووجنتيهما .

وشربا من بين شفاههما قطرة صغيرة باردة .

قال بيير :

— ولكن الآخرين ؟

فقالت لوس :

— أي آخرين ؟

فأجاب بيير :

- البائسون . كل من ليسوا نحن ؟
- فليفعلوا مثلنا ! فليحبوا !
- وإن يخطوا بالحب ، يالوس ، ذلك مالا يستطيعه كل الناس .
- ولكن بلي !
- ولكن لا ! إنك لا تعرفين ثمن الهبة التي منحتني إياها ...
- أن يعطي المرء قلبه للحب ، وشفقيته للمحبوب ، ذلك أن يعطي عينيه للنور ... ذلك ليس إعطاءً ، بل أخذاً !
- هناك عميان .
- إنا لن نشفيهم ، يابنيرو ! فلنبصر من أجلهم !
- وظل يبصر صامتاً ...
- قالت لوس :
- فيم تفكر ؟
- أفكر أن ذلك الذي أتى إلى هذا العالم لي يشفي العميان قد تألم في مثل هذا اليوم ، بعيداً جداً عنا ، قريباً جداً منا ...
- فتناولت لوس يده :
- هل تؤمن به ؟
- لا ، يالوس ، لست أؤمن أبداً . ولكنه يظل دوماً صديقاً

لا أولئك الذين استقبلهم مرة على مائدة . وأنت ، هل تعرفينه ؟

فأجابت لوس :

— بالكاد . إنهم لم يحددوني عنه مطلقاً ... ولكنني ، دون أن

أعرفه ، أحبه ... أني أعرف أنه كان يحب .

— ليس مثلنا .

— لم لا ؟ نحن ، إن لنا قلباً صغيراً مسكيناً لا يعرف أن

يحب إلاك ، يا حبي . أما هو ، فقد كان يحبنا جميعاً . ولكنه

دوماً الحب نفسه ...

فسأل بيير ، منفعلًا :

— هل تريد أن تذهب غداً للشهد الاحتفال بموته ؟ ...

لقد قيل لي إنهم يمزفون موسيقى رائعة في سان جرفيه ...

— نعم . لأحب كثيراً أن أذهب برفقتك إلى الكنيسة ذلك

اليوم . لسوف يكون استقباله لنا حسناً ، إني على يقين من

ذلك . إذ نكون أكثر قرباً إليه ، نصير أكثر قرباً من

بعضنا البعض ..

وسكتا ... المطر ، المطر ... إن المطر يهطل ، والمساء يهطل

أيضاً ...

قالت :

— في مثل هذه الساعة ، غداً ، لسوف نكون هناك ...

وابتدأ الضباب ينفذ ، فاجتاحها قشعريرة صغيرة ...

سأل ، قلقاً :

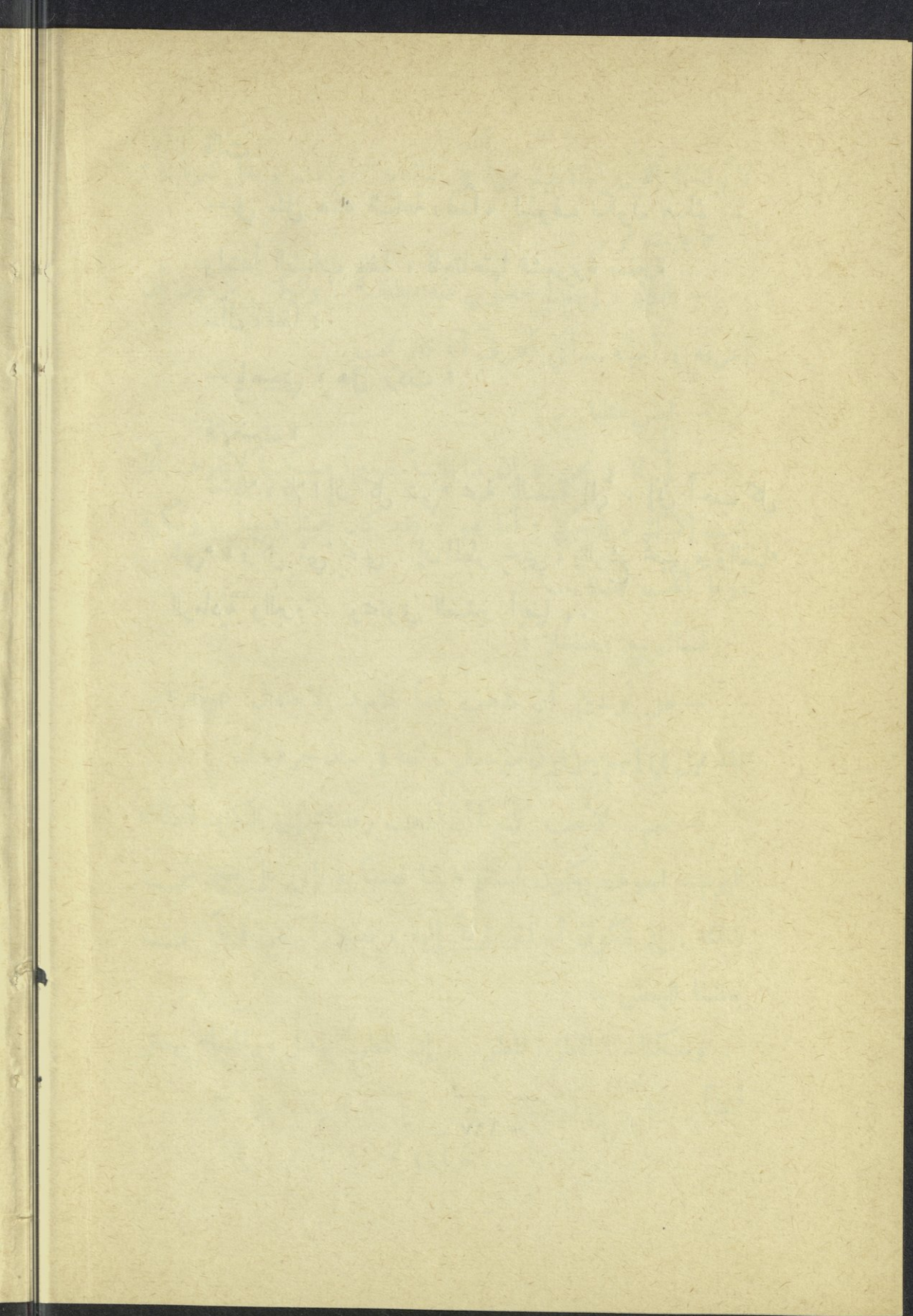
— يا حبيبتي ، هل بردت ؟

فهضمت :

— كلا ، كلا إن كل شيء محبة بالنسبة إليّ . إني أحب كل

شيء ، وكل شيء يحبني . إن المطر يحبني ، والريح تحبني ، والسماء

الرمادية والبرد .. ومحنوبي الصغير أيضاً ..



ظلت السماء مغمورة ، يوم الجمعة المقدسة ، بأستارها الفضفاضة
الرمادية ، لكن الجو كان عذبا هادئا . وكنت ترى في الطريق ،
في كل مكان ، ورودا ، ونرجسا ، وقرنفلآ ، تناول بيير باقة
منها احتفظت لوس بها في يدها .. وسلكا طريق أورفيفر الساكن ،
ومرآ عند أسفل درجات نوتردام الطاهرة . كان سحر المدينة ،
المرتدية نورآ كنوما ، يطوقها بعذوبته النبيلة ... وعندما بانسا
ساحة سان جرفيه ، طارت بمض الحمامات عند أقدامها ، فتابعها
بالبصر وهي تخلق حول مقدمة الكنيسة ... هذه إحداها تحط

على رأس أحد التماثيل القائمة في الساحة الواسعة . وعند قمة
سلم فناء الكنيسة ، بينهما يتأهبان للدخول ، انفتحت لوس فرأت ،
على بعد خطوات قليلة منها ، وسط الجمهور المحتشد ، بنية صغيرة
حمرء الشعر ، تبلغ الثانية عشرة من العمر ، قد استندت إلى
البوابة الكبيرة ورفعت ذراعها فوق رأسها وراحت تطلع إليها
بشبات ولهفة ... كان يحياها دُفق الملامح ، أشبه بحيا إحدى
تماثيل الكاتدرائية القديمة ، تطوف فيه ابتسامة حلوة ، لطيفة ،
لموبة ، عذبة ، مفعمة بالأفاز . وابتسمت لوس لها أيضاً ،
وهي تدلّ يير عليها ، ولكن نظرة البنية كانت تمرّ من فوقها ،
ثم جفلت بغتة واضطربت وامتلأت رعباً . وتوارت الصغيرة ،
وهي تخفي وجهها بين يديها .
سألت لوس :
— ما بالها ؟
ولكن يير لم ينظر إليها .
ودخلا الكنيسة . كان الحمام ، فوق رأسيهما ، يسجع في عذوبة
إنه آخر ما تبقى من ضوء الخارج . وراحت أصداها باريس
تنطفئ ، والهواء الحار يتلاشى ، كي تفصلهما ألحان الأرغن ،

والقبة العظيمة ، وجدار الحجارة والأصوات عن العالم وكل ما فيه .
وجلسا في إحدى زوايا الكنيسة ، بين المصلّي الثاني والثالث ،
إلى اليسار من المدخل . وربض كلاهما ، في ركن أحد الدواميد ،
جلوساً على السلام ، بعيداً عن بقية الحاضرين ، وقد أدارا الظهر
إلى الجوقة ، ورفعوا الأعين يتطلعان إلى قمة مذبح مصلّي جانبي
وصليبه وزجاجه ، يطلّ عليهما من عل . . . وكانت التراتيل الجميلة
العريقة تبكي كآبتها التعمدية ، أما الوندان الصغيران فتماسكان
بالأيدي ، أمام الصديق الكبير ، في الكنيسة المتوشحة بالحداد .
وكان كل منهما يتمم ، بصوت مخفوض ، في وقت واحد :
- أمامك أيها الصديق الكبير ، إني آخذه ، إني آخذها .
جمع بيننا ! أنت ترى قلبينا .

وظلت أصابعهما مترابطة ، مشبوبة معاً مثل قش السلة الصغيرة
كانا جسداً واحداً تجتازه أمواج الموسيقى باهتزازاتها وعرواتها .
وراحا يحلمان ، وكأنهما في فراش واحد .
ورأت لوسي ، في فكرها ، البنية الجراء الشعر ، فخيّل إليها
على حين غرة أنها قد شاهدها في الليلة المنصرمة في الحلم . ولم
تستطع أن تعرف إن كان ذلك صحيحاً حقاً ، أم أنها تسقط

رؤياها الحاضرة على سبات الأُمس . ومن ثم استسلم فكرها
إلى التحليق في الأجواء البعيدة ، وقد أتعبه الجهد المبذول
في سبيل الذكرى .

وكان يبر يفكر في الأيام التي انقضت من حياته المقبضة ،
مثله في ذلك مثل القبرة التي ترتفع من السهل المغمور بالضباب
كي تبحث عن الشمس . . ما أبدها ! ما أشد ارتفاعها ! هل سيضل
إليها يوماً ؟ إن الضباب يزداد كثافة ، ولم تعد هناك أرض ،
ولم تعد هناك سموات ، وإذا بالقوى تتحطم .. وعلى حين فجأة ،
بينما كان الحزن الغريغوري يسيل تحت قبة الجوقة ، اذ بالنشيد
المهال ينبثق ، فيطفو في الظلال جسد القبرة الصغير المرتجف ،
ويروح يسبح على سطح بحر الشمس العديم الشيطان ..

وذكّرتهما حركة من أصابعهما أنهما يطوفان سوياً وهما
يلتقيان من جديد في ظل الكنيسة ، ملتصقين بشدة ، يصغيان
إلى الأناشيد الحلوة . إن قلبيهما ، الذائبين حبة ، ليلفان
قمم الفرح ، الأكثر نقاءً وصفاءً ، فيروح كلاهما ، بحرارة ،
يتمنيان - يصليان - ألا يهبطا من هنالك أبداً .

وفي هذه اللحظة شاهدت لوس ، وقد قبلت رفيقها الصغير

العزیز بنظرة ملتهبة ألقها عليه (كان يبدو ، وعيناه نصف
مغمضتين ، وشفاه منفرجتان بحلاوة ، ضائعا في إشراق من
السعادة ، يرفع رأسه ، في انطلاق من الفرح المفعم امتناناً
وعرفاناً بالجميل ، نحو تلك القوة العليا التي يفتش عنها ، بصورة
غريزية ، في العالم) . شاهدت لوس ، مدهوشة ، في زجاج المصلى
الأحمر والمذهب ، وجه البنية الحمراء الشعر التي رأها في الفناء
وهي تبسم ... وبينما هي تتطلع إليها ، خرساء ، متجمدة من
الذهول ، رأت من جديد ، على المحيا الغريب ، نفس ذلك التعبير
من الرعب والاشفاق .

وفي ذات اللحظة ، تحرك العمود الضخم الذي كانا يستندان
إليه ، وارتجفت الكنيسة بأسرها ، حتى أكثر أسسها عمقا ،
وإذا بلوس ترتعي ، وضربات قلبها تخنق فيها ضجيج الانفجار
وضوضاء ضيحات الناس ، قبل أن تجد الوقت كي تخاف ، أو
كي تتألم ؛ ترتعي ، كي تغطيه بجسدها ، مثلما تفعل الدجاجة
لصغارها ، على يبير الذي يتبسم سعيداً ، مغمض العينين ... وبحركة
أمومية ضمت ، بكل قواها ، الرأس الحبيب على صدرها ، ثم

دار القطة العربية للناليف والترجمة ونشر

تقدم الى قرائها قريبا

روائع

من

الإدب السوفيتي

بافة مخنارة من قصص تولستوي ، اهرنبورغ ، سيمونوف ،
جورباتوف ، شولوخوف ، پوستوفسكي ، پوليفوي ، جايدار ،
كازا كيفيتش ...

« أدب جديد يمثل إنساناً جديداً في بلاد جديدة »

اطلبوا منشوراتنا من كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

دار اليفطة العربية للنألف والترجمة والنشر بسورية

تقدم في

سلسلة عيون الأدب العالمى

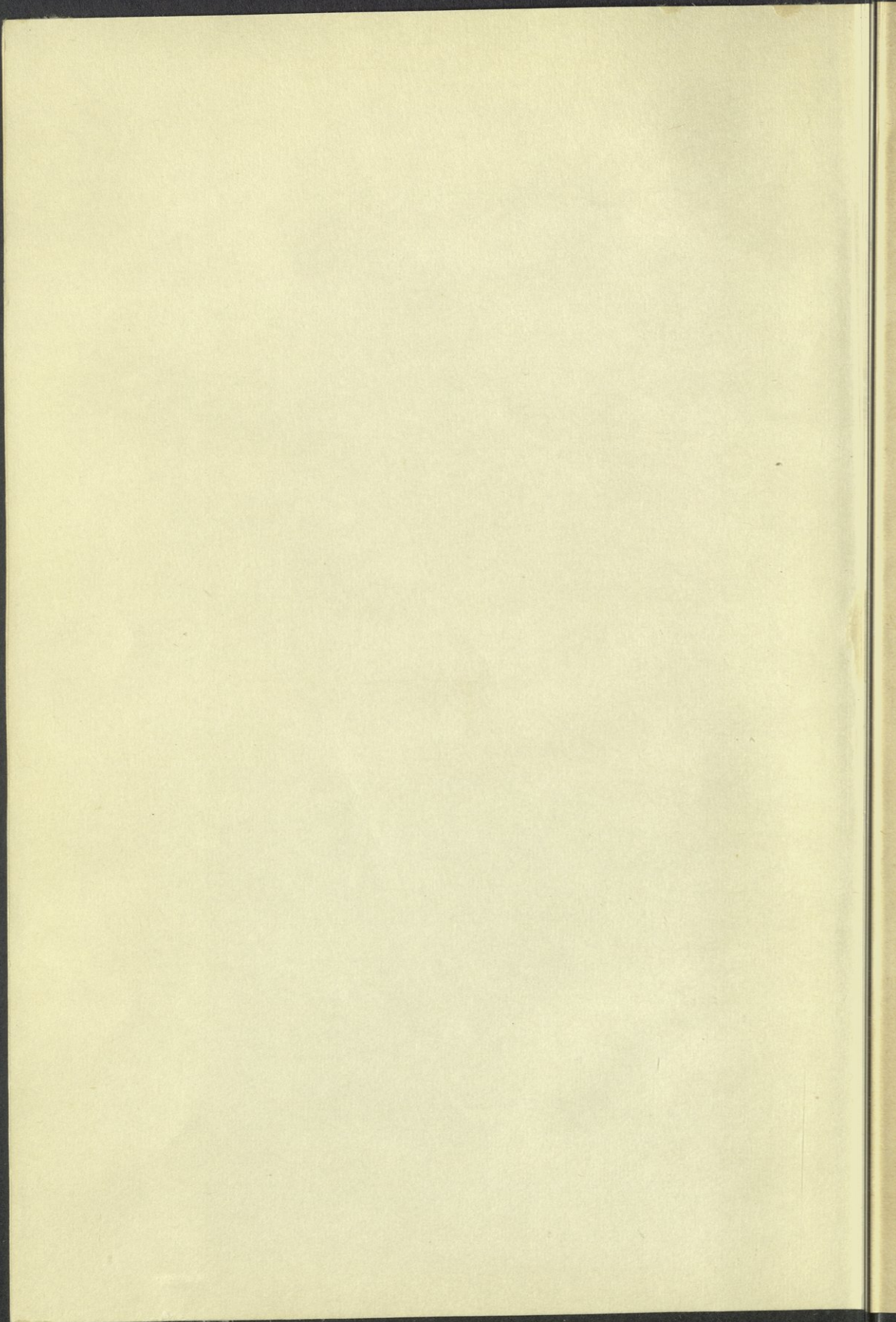
المؤلفات الكاملة

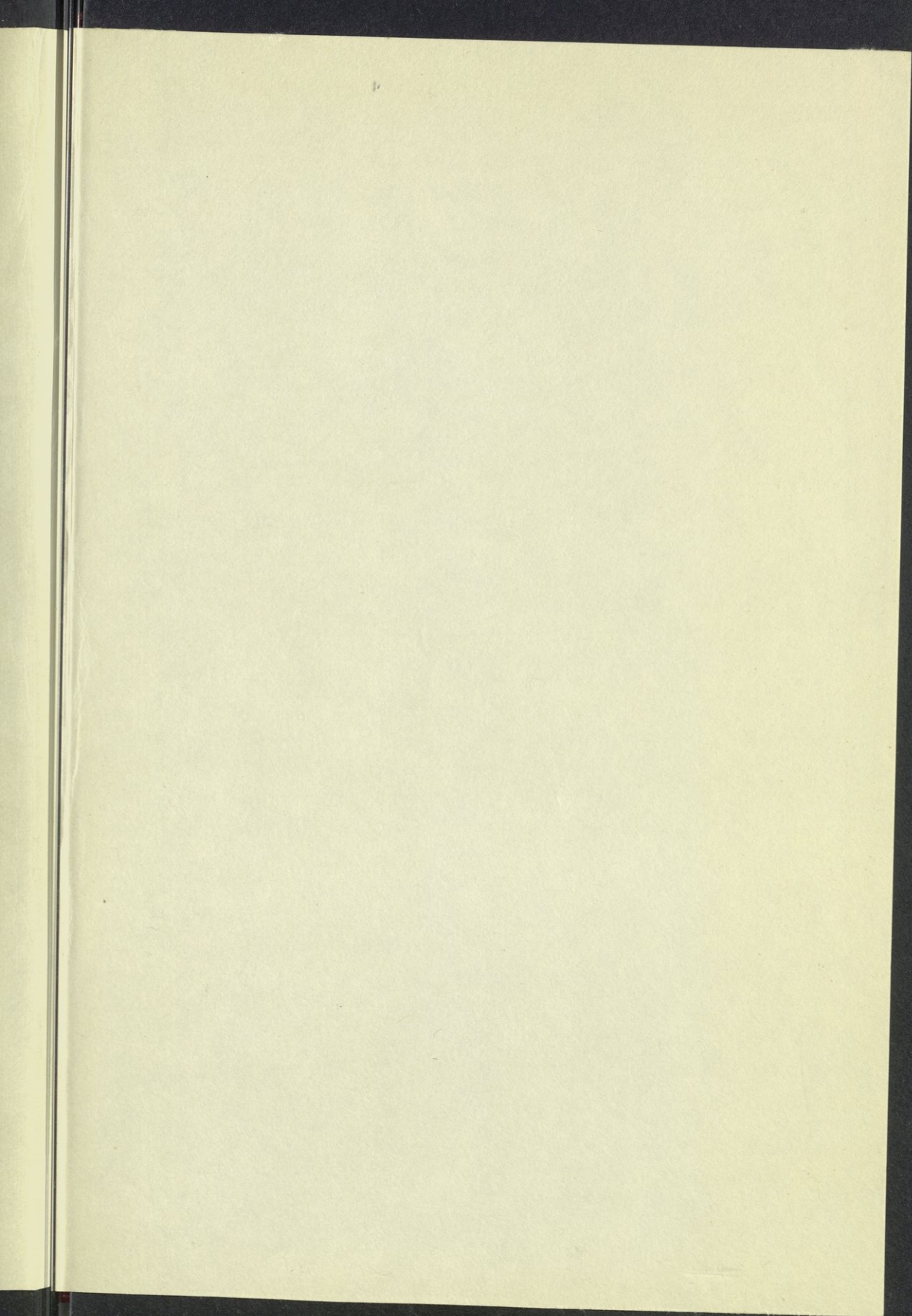
*** للكتاب الروسى الكبير ***

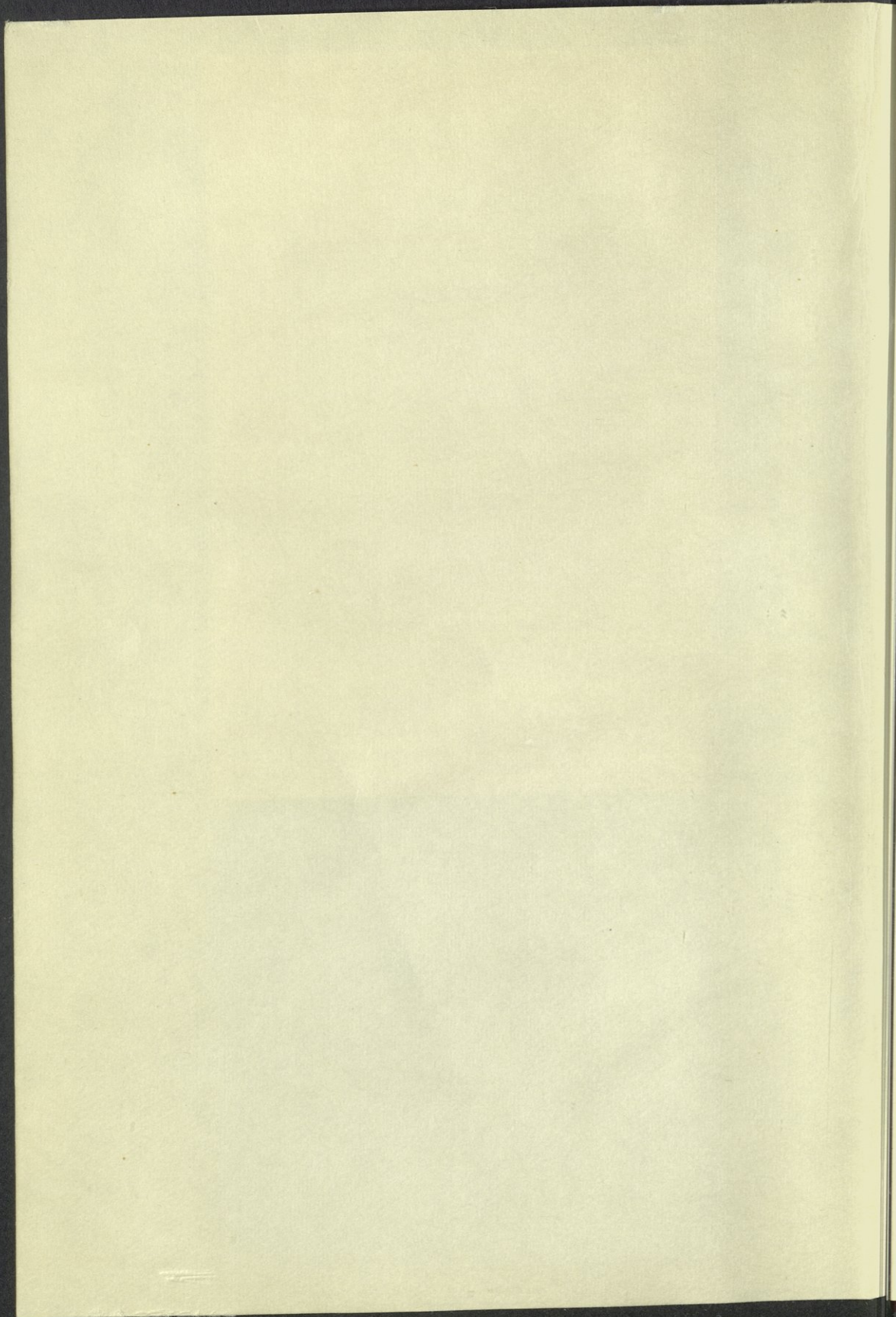
أنطون تشيخوف

صدرت منها المجموعة الثانية

..... عبت برى	المنزل ذو الجناح المتوسط
..... الطبيب	 عود الثقاب السوبرى
..... بزة الرئيس	 صاعبة الكلب الصغير
..... الحذاء وقوة الجبهيم	 فولوديا
..... الثأر	 طستانط
..... خلق	 الجنارب
..... الحذاء	 القبة
.....	 ذكريات







DATE DUE

JAFET LIB. 3 OCT 1982	
1 JUN 1974	
JAFET LIB. 1 OCT 1974	3 OCT 1982
JAFET LIB.	9 MAR 1983
12 SEP 1975	
JAFET LIB.	
21 OCT 1975	
J. LIB. 23 FEB 1981	

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032143

ايوب، فؤاد

حب و حرب

رولان ، رومان .

حب و حرب

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
6. 6. 74	F-303		
28 AUG 75	74-1683		
17 OCT 75	74-1937		
10. 2. 81	77-1134		
30 SEP 82	79-1833		

843

R 74 HA 2

